اقرأ

عادل الغضبان

ليلى العفيفة

دار المعارف بمصر

ليلى العَفِيفة

عادل الغضبان

ليلى العفيفة

اقرأ ١٣٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣٥ – أول مارس ١٩٥٤



١

– ليلى . . . ليلى . . .

سمعت ليلى بنت لُكَيْز صوتاً يناديها فعرفت فيه صوت خالتها أمّ الأغَرّ فخفّت من داخل الخِباء إلى لقاء صاحبة الصوت وخرجت مهرولةً تجيب النّداء تاركةً ما كانت فيه من شؤون الخِباء غيرَ معنيَّةٍ بجمع شتات إزارها ولا بعَقْص شَعرها المسترسل على كتفيها .

ولمّا أزاحت السّتر عن باب الخِباء ونفرت منه إلى لقاء خالتها أمّ الأغَرّ هابطةً إليها من الرّبوة العالية إلى السّفح وقد تطاير شعرها الفاحم في الهواء وكشف المئزر المتراخي عن صدرٍ كأنه قطعة من العاج نظرت إليها خالتها مأخوذةً بإشراق وجنتيها الخمريتين الملوّحتين بطلاء الشمس مكبرةً التماع السحر في عينيها الدّعجاوين معجبةً بذلك الغصن الرطيب من الصبا والجمال .

فلم تكد ليلى تصل إلى حيث كانت خالتها واقفةً تنتظر حتى حطّت أمّ الأغرّ على صخرة قريبة منها صرّة كانت في يدها وفتحت ذراعيها تستقبل ابنة أختها التي حرمها الموت

حنان الأمّ منذ سنوات. فتعانقت أمّ الأغرّ وليلى وتبادلتا القبلات ثم حدّقت أمّ الأغرّ في ليلى طويلاً بعينين ناطقتين بالحب والحنان وقالت :

— « واللات والعزّى إنك لأجمل نساء العرب . . . ويا سعد ابن عمّك البرّاق. فيومَ تُزَفّين إليه يظفر بجوهرة نفيسة هي كنز قبائل ربيعة على الإطلاق . »

فاحمرّ وجه ليلى خجلاً وقالت وهي مُطرقة تداعب خرَزات عقدها :

— « إنها عين الرضى يا خالتاه فكم مثلي في ربيعة ولئن آثرني البرّاق دون فتيات العشيرة إنه سلك إليّ سبيل القربى والنسب . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « ولِمَ لا تقولين إنه سلك إليك سبيل الهوى والوجد . فما كانت القربى لتنيله قلامةً من ظفرك لولا قلبه الخافق بحبّك وهواك فلطالما سمعته يفضي بشؤون فؤاده إلى أخي كُلَيب وأنت تعلمين أن كليباً مستودَع سرّه ورفيقه الوفيّ الأمين . . . » فقاطعتها ليلى قائلةً :

— « ولِمَ لا تقولين يا خالتاه إن أبي آثره دون شباب الحمى لأنه فارس العشيرة وفتاها المرجّى. » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتنكرين يا ليلى أن الحبّ الذي ربط قلبيكما

بأسبابه لم يكن المدعاة إلى قبوله عروساً لك . »

فعاودت وجه ليلى حمرة الخَفَر والحياء فلم تنبس ببنت شفة فضمّتها أمّ الأغرّ إلى صدرها ثم قالت :

ــ « كاد حديثنا يا ليلى ينسيني ما جئت من أجله . »

واستدارت إلى حيث وضعت الصرّة التي كانت في يدها ففكّت عقدتها وفتحتها وهي تقول :

ــ « أصلحت اليوم هذه الحلوى فعزّ عليّ أن أطعم منها أنا وأهلي ولا تذوقيها . » فقالت ليلى :

ــ « شكراً لك يا خالتاه فما أرى نفسي تشتهي شيئاً من الحلوى . » فقالت أمّ الأغرّ :

ــ إنها الحلوى التي تحبّينها . . . انظري . . . فهذا هو البَريك المصنوع من الرّطب والزّبد . . . إنها الحلوى التي يفضّلها أخي كليب على غيرها من الحلوى . . . ثم إني جئتك أيضاً بقدر من البسيسة فرغتُ من صنعها منذ قليل وقد انتقيت لها أجود السمن والدقيق . . . » فقالت ليلى :

ــ « أشكرك يا خالتي على ما تؤثرينني به من فضل ومنّة ورعاية فما كنت لأنسى برّك بي وحدَبك عليّ منذ نعومة أظفاري ولا سيما بعد موت أمي . . . » فقاطعتها أمّ الأغرّ قائلة :

ــ « منذ نعومة أظفارك . . . نعم منذ نعومة أظفارك عرفت فيك هذه العفّة الحمقاء وهذا الدلال المتجنّي فما من مرّة خصصتك بهديّة من طعام أو ملبس أو حلية إلا تمنّعت وأعرضت كأنني غريبة عنك أو كأنك تخشين مني جميلاً تكوين بحرّ ناره ففيمَ هذه الأنفة يا ليلى. ومن بثّ فيك هذه الخلّة العجيبة . »

فقالت ليلى :

ــ « هي أمي يا خالتي فقد عوّدتني وأنا طفلة أحبو أن لا أمدّ يدي إلا إلى ما تعطينيه هي أو يعطينيه أبي . . . »

فقالت أمّ الأغرّ :

ــ « لو أن حبيبك البرّاق أهداك هذه الحلوى أكنت تعفّين عنها . »

فقالت ليلى شامخة مترفّعة :

ــ « عففتُ عن أطيب من هذه حلوى كان في وسع البرّاق أن يقدمها لي منذ أن خطب يدي ووعده أبي بزفافي إليه بعد عودته من اليمن كما أنه عفّ هو أيضاً عن حلوى كان في وسعي أن أنيله إياها في خلواتنا وعند تلاقينا في المراعي النائية والدّانية . » فقالت أمّ الأغرّ متلطّفة :

ــ « لقد عرفت العشيرة كلها عفاف هذا الهوى بينك وبينه فما طار لك ذكر فيها إلا وهو معطّر بأريج الآس

والرّيحان ولا أخفي عنك أن هذه الحلّة الرفيعة هي التي حملت العشيرة على أن تلقبك بالعفيفة فلا يذكرونك إلا قالوا : ليلى العفيفة . » فقالت ليلى متوددة لخالتها :

— « هاتي يا خالتي حلواك فسوف ينقضّ عليها إخوتي انقضاض الصقور الجوارح عند عودتهم من المرعى في أصيل النهار فما أعددتُ لهم اليوم إلا قليلاً من السخينة ولا تحسبيني جاحدةً فضلك وجودك غير أن قلبي على أبي بعد إذ طالت رحلته إلى اليمن أشهراً طوالاً قد اجتثّ من صدري كل شهوة إلى طعام وكل ميل إلى بهجة ومسرّة. هذا ويشاطرني ابن عمّي البرّاق قلقي واضطرابي فهو جزِعٌ على مصير أبي ضيّق الصدر بانتظار يوم الزواج . »

وعكفت ليلى على الصرّة فأوثقت عقدتها وحملتها بيمناها وتأبطت بيسراها ذراع خالتها لتسير بها إلى الخباء فقالت هذه :

— « نفسي تحدّثني بأن أباك عائد اليوم يا ليلى فعيني تختلج وما برحت تختلج طول الطريق وأنا قادمة إليك وهذا دليل على أنه راجع إلينا قريباً جدّاً ولعلّ ركبه الآن وراء تلك الهضبة القائمة على مرمى النظر . » فقالت ليلى :

— « ما عُدْتُ أومن بهذه الظواهر يا خالتاه فإني ساعة

رحل أبي قبضت قبضةً من مواطئ قدمه وعُنيتُ بحفظها في مكان أمين تفاؤلاً واستبشاراً بعوده السّريع ولكن غيبته مع ذلك قد طالت حتّى أثارت في نفسي كوامن الاضطراب والظنون » . فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « حسناً فعلت يا ليلى وما إخال عملك هذا إلا معجّلاً أوبته . . . ولكن علامَ تجزعين ونحن نعلم وأنت تعلمين أن أباك رحل يزور عمرو بن ذي صهبان ابن ملك اليمن ويظفر منه بالعون والتأييد بَلْهَ التحف والألطاف . فأبوك لُكَيْز أثيرٌ مكرّم عنده ثمّ إن الشقّة بين مضاربنا في الجزيرة وبين صنعاء اليمن واسعة طويلة تنوء بها المذاكي العِتاق وتضلّ فيها الرّواحل . . . » فقالت ليلى :

ـ « هذا ما يثير فيّ الخوف والجزع وإني لأخشى أن يتعرّض أبي في بُعد الشقة للغزو والغارة . . . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « أنسيت أن أباك فارس من فرسان ربيعة الشجعان وأحد أبطالها المغاوير . . . ولكن ما لنا وللظنون . . . تعالي نتحقّق من سلامته قبل أن نسير إلى خبائك . وهيّا نعرّج على تلك البئر القريبة من مضارب الخيام ونسائلها أمره وإني لواثقة بالبشرى التي ستفضي بها تلك البئر إلينا فنعلم أنه سليم معافى وحيّ يرزق . »

فهزّت ليلى رأسها شكّاً واستنكاراً فأنّى للآبار الجوامد أن تفصح عن شؤون الأحياء ولكنها عادات القوم تأخذ بها لا عن يقين واقتناع بل استرواحاً للأمل وإنعاشاً للرجاء فلم تجادل خالتها فيما طلبت ولا نفضت لها مكنون رأيها في مثل هذه العادات ولا أخبرتها أنها منذ بدأت تختلف هي وابن عمّها البرّاق إلى الراهب النّصراني المقيم بأحد أطراف البادية فيأخذان عنه قواعد الدين الجديد ويتعلمان منه تلاوة الإنجيل قد تغيرت نظرتهاإلى الحياة وإلى خوارق الطبيعة وقديم العادات . فسارت معها إلى البئر إرضاءً لها وتعلّلاً بالخبر الطيّب تسمعه حتّي من ألسنة الحجارة وأفواه الآبار .

وصلت ليلى وخالتها إلى البئر فوضعت الفتاة على الأرض صرّة الحلوى التي تحملها بيمينها وانفلتت من ذراع خالتها وأقبلت على فوّهة البئر فلما صارت منها على قيد شبر التفتت إلى خالتها مستوضحة فقالت لها أمّ الأغرّ :

— « هيّا اسأليها . . . »

فأذعنت ليلى تتنازعها عوامل عدّة فمن زراية باستنطاق الآبار إلى رجاء بجواب مفرح يهدّئ من روعها إلى خشية من سكوت البئر فيكون لها من ذلك السكوت مثار إلى التطيّر والتشاؤم وإن لم يكن لهذا المعتقد في نفسها قوة الإيمان واليقين .

اقتربت ليلى من البئر وهي راجفة واجفة وصاحت :

ــ « يا لُكَيْز . . . يا أبا ليلى . . . »

فانتفضت أمّ الأغرّ متهللة صائحة :

ــ « إنه حيّ . . . إن أباك حيّ يُرزق . . . لقد سمعت الصوت . . لقد أجابت البئر . . بُشراك يا ليلى . . . هنيئاً للعشيرة وهنيئاً لك بسلامة أبيك . . . إنه سيعود قريباً وستزفّين إلى ابن عمك البرّاق . . . »

أبرقت أسارير ليلى من هذا الفأل الحسن فجرت إلى خالتها تعانقها وتقبّلها ثم حملت صرّتها ومشت وأمّ الأغرّ في الطريق المؤدية إلى الخباء تتجاذبان مختلف أطراف الأحاديث .

ولم يكد المقام يستقرّ بهما في داخل الخِباء حتى تنهض أمّ الأغرّ واثبةً إلى خارج الخِباء وهي تصيح قائلة :

ــ « ليلى . . . إني أسمع أصوات جلاجل . . . »

فلحقت بها فرحةً مغتبطة ورمت المرأتان بأنظارهما إلى الأفق البعيد فلم تستبينا طلائع ركبٍ من الرّكبان فتبادلتا نظرات العزاء عن خيبة الأمل وهمّتا بالدخول ثانية إلى الخِباء لولا أنهما سمعتا صوت جلجل قريب يخالطه ثغاء الغنم فاتّجهتا نحو مصدر الصوت فإذا إخوة ليلى والبرّاق وكليب أخو أمّ الأغرّ عائدون من المرعى بقطعان الغنم والمعزى فافترّ ثغر

ليلى عن بسمة مثل لألاء الصباح بلقاء حبيبها وأخويها وخالها وما عتّم هؤلاء الشباب أن وصلوا إلى أمّ الأغرّ وليلى فبادلوهما التحيّات الطيبات وقضى الجمع ساعة في شجون من الحديث أكلوا فيها من السخينة التي صنعتها ليلى ومن حلوى أمّ الأغرّ.

وفجأة وثبت هذه إلى خارج الخباء وهي تقول صائحة :

ـ « أصوات جلاجل . . . أسمع أصوات جلاجل بعيدة . . . ما كذبني الحسّ هذه المرّة . . . إنها منحدرة إلى سمعي من طريق القوافل عند الهضبة العالية . . . »

فتبعها القوم وسرّهم أن يروا على مدى الأفق في ضوء الشفق الورديّ أشباح قافلة قادمة إليهم وما لبثوا أن تبيّنوا أشخاصها فإذا كُلَيْز أبو ليلى في الطليعة مستوياً على متن جواده الأصهب في شكّة كاملة من السلاح ووراءه جماعة غلمانه يتمايسون على ظهور الإبل. فما إن تبلغ القافلة ساحة الخيام وتبرك الجمال ويترجّل كُلَيْز حتى تسبق ليلى إخوتها إليه وترتمي بين ذراعيه تغمره ويغمرها بالعناق والقُبَل. ثم يأخذ إخوتها نصيبهم من تحية أبيهم وتقبيله ويطوف كُلَيْز بعد ذلك على أمّ الأغرّ وكليب والبرّاق فيحيّيهم ويحيّونه ويرحّبون بمقدمه بعد غيابه الطويل .

ويسير في الأحياء خبر عودة كُلَيْز فيخفّ إليه الأقارب

والجيران ورجال العشيرة ونساؤها مرحّبين مسلّمين ثم يرفضّ السّامر وينصرف الزّائرون مودّعين مكرّرين الدعاء بسلامة الرجوع. وحين تنهض أمّ الأغرّ مودّعة تقول لـُلكَيْز وهي تشير إلى ليلى والبرّاق .

ـ « لقد أطلت غيابك يا لُكَيْز فمن حقّ هذين العروسين عليك أن تمضي عاجلاً في التأهب ليوم الإملاك ثم ليوم البناء فمتى يكون ذلك. عجّل يا لُكيز فنحن في شوق إلى الأفراح ويسرّني أن أبذل غاية الغايات في جلوة ابنتي ليلى أجمل جلوة وأكملها وإن كانت بجمالها الوضّاح في غنى عن كل زينة . . . »

خفق قلب البرّاق غبطةً وطرباً لدى سماعه هذا الكلام وأغضت ليلى ببصرها خجلاً واستحياءً أما لكَيْز فقد تجهّم وجهه وودّع أمّ الأغرّ وكليباً والبرّاق وكانوا آخر المنصرفين ولم يحر جواباً . . .

٢

فرغ ُلكَيْز من ضيوفه وأقبل على بنيه يبثّهم ويبثّونه الشوق والمحبة ثم أمر نفراً من غلمانه فأدخلوا إلى الخِباء صندوق التحف والهدايا التي أهداها له ابن ملك اليمن ففتح الصندوق وأخرج منه نفائس ما يحتوي وقال مخاطباً بنيه الثلاثة :

ــ « هذه البرود اليمانية جميعها لكم إنها من الديباج المعصّب بالذهب . وهذه الأردية المخططة بسهام الفضة والذهب هي كذلك لكم فالبسوها في أيام الأعياد والمواسم تدلّوا بها على شباب القبيلة أجمعين . » فتلقّفها الشباب الثلاثة في فرحة ظاهرة وأقبلت ليلى تتلمّسها وهي تقول :

ــ « إنها أجمل وأغلى ما وقعت عليه عيني من أبراد غالية . . . » فقال ُلكَيْز مستأنفاً ويده لا تفتأ تتناول من الصندوق تحفةً بعد تحفة :

ــ « وهذه الأحزمة من الخزّ هي كذلك لكم . . . ولكن ما نفع الحزام الجميل إن لم يكن مناطاً لثمين الخناجر . . . »
فصاحت ليلى وصاح معها إخوتها :

ــ « أأهداك أيضاً خناجر . » فقال ُلكَيْز مبتسماً :

ــ « وأيّ خناجر . انظروا . . . »

وأخرج من الصندوق ثلاثة خناجر متشابهة قد صنعت مقابضها وأغمادها من الفضة المزركشة وحليت بالأحجار الكريمة ما بين أحمر وأصفر وأخضر تنبعث منها أشعة متلألئة ترشق النور في جوانب الخِباء فيشوه عنده ضوء ذبالة الزيت المرتجف المتراقص .

واعتمد كل فتًى منهم خنجراً من الخناجر يقلبه في يديه تارة ويجرّده من غمده تارة أخرى ويمرّ بحدّه على ظهر ظفره ليمتحن رهافته ومضاءه معجباً برواء فرنده. وقطع لُكَيْز عليهم حبل إعجابهم واسترعى انتباههم وانتباه ليلى عندما أخرج من الصندوق عدّة أكياس صغيرة وأخذ يهزّها ويضرب بعضها ببعض فيسمع لها وسوسة كوسوسة الحلي أو نقر الصنوج . ففغر الأبناء أفواههم وتساءلوا مشدوهين مدهوشين :

ــ « ما هذا. » فقال لُكَيْز بعد أن فكّ أربطة الأكياس وأفرغ ما فيها :

ــ « هذه نقودهم يتعاملون بها ويبيعون ويشترون. أعطانيها الأمير عمرو بن ذي صهبان لأستعين بها على شراء ما يحلو لي من السّلع من تجار اليمن المقيمين أو الظّاعنين بتجارتهم عَبْر الأصقاع والأقطار . »

فأعملت ليلى أناملها الجميلة في تلك النقود وأخذت تتأملها وتحدّق فيها قطعةً قطعةً وحذا إخوتها حَذْوَها وتعالى صياحهم جميعاً وأنشأوا يتداولون الرأي فيها ويصفون ما يرون منها :

— « هذا رأس صقر . . . »

— « حذار من أن ينقضّ عليك . . . »

— « هذا رأس ثور . . . »

— « حذار من أن ينطحك بقرنيه . . . »

— « هذه صورة هلال . . . »

— « إنه اقتبس منك الحسن والإشراق يا ليلى . . . »

— « هذه صورة بومة . . . »

— « ما أسمج هؤلاء القوم . ألم يجدوا في الطير خيراً من البومة ينقشونها على نقودهم . . . »

— « هذه صورة إنسان . . . لعله ملك من ملوكهم أو أمير من أمرائهم . . . »

— « ولكن أين أخفى لحيته . »

— « إنه استعاض عنها بشعره المضفور جدائلَ مرسلةً على خدّيه . . . »

— « وهذه الخطوط ما تراها تكون . إنها أشبه بخطوط

الضاربين بالرمل . . . »

ـ « إنها الكتابة التي يتفاهمون بها ويتراسلون . . . »

وبقيت ليلى وإخوتها يتحاورون ويتحدّثون ويتخلل محاوراتهم الضحك والدعابة والعبث بقطع النقود ولُكَيْز يفسّر لهم ما غمض من شأنها حتى قال الأخ الأصغر :

ـ « وليلى . . . ماذا جلبت لها معك . » فقال لُكيز وقد افترّ فمه عن ضحكة عريضة :

ـ « قل ماذا أهدى لها الأمير عمرو بن ذي صهبان . . . »

فقالت ليلى في إباء وشمم :

ـ « وما شأن الأمير بي حتى يبعث إليّ بهداياه . . . وأنّى له أن يعرفني ويعرف بوجودي . . . ومتى كان أمراء الحواضر والمدن يحفلون بفتيات البوادي . . . » فقال لُكيز وقد أهمّه ما سمع :

ـ « وهل في ربيعة ألفُ ليلى . إنها ليلى واحدة بنت لكيز تناقلت الركبان سيرة أدبها وكمالها وتحدّثت بباهر جمالها فسار ذكرها مسير الشمس وتطلعت إليها القلوب من أقاصي الديار أفَيُلامُ الأمير عمرو بن ذي صهبان إذا طربت أذنه بمحامدك وقدرك قدرك وغمرك بالهدايا . . . »

ـ « فوجمت ليلى ووجم معها إخوتها وبدّد لُكَيْز ذلك

الوجوم حينما استأنف الكلام وقال مبتسماً متهللاً وهو يخرج من الصندوق الهدايا والألطاف :

— « هذي هديّتك يا ليلى . إنها مجموعة من الدّمَقْس والحرير َفقرّي عيناً بها والبسيها ناعمة هانئة . إنها ضروب من الثياب الثمينة ما بين مسلسل وصفيق ومسهّم ونميق وما بين حبرة موشاة ومِرْط مذهب وشِعار وصدار بلغا غاية النفاسة من صناعة اليمن . . . »

فتلقّت ليلى هديّتها ساكتة غير مبتهجة وهتف بها قلبها أن وراء الهديّة تضحية جسيمة وشرًّا مستطيراً . وأحبّ أبوها أن يبعث في قلبها البهجة والحبور فقال :

— « ليست هذه البرود هي كل الهدية فإن لها لتوابع ثمينة . . . »

ومدّ يده إلى الصندوق فرجعت تحمل وشاحاً مرصّعاً بالجواهر واللآلئ فقدّمه إليها باسماً بسمة الظافر في معركة . فأخذت ليلى الوشاح وما وَسعها إلا أن تثني على نفاسته وثمين لآلئه فضحك لُكيز مسروراً مبتهجاً وقال :

— « إن غيث الهدايا لما ينقطع فلا يزال لليلى في الجراب أشياء نفيسة لا يهديها إلا الملوك والأمراء . . . »

وأعاد يده إلى الصندوق وأخرج منه دملجاً من الذهب

مرصّعاً باليواقيت وقال :

ــ « هذا لك يا ليلى . . . »

فتبسمت ليلى وأخذت الدملج وصاح إخوتها :

ــ « ما هذه النفائس يا أبي. أحُلى رعاة غنم هذه أم لباس الأمراء والأميرات؟ . » فقال لُكيز ضاحكاً :

ــ « سننتهي عما قريب من رعي الغنم وسكنى الخيام والضرب في البوادي ولُبْس الوبر وأكل الثريد فإني أعددت لكم حياة تنقذكم من هذا الشظف وتغرقكم في أعطاف الغنى واليسار وكل هذا مرجع الفضل فيه إلى أختكم ليلى . . . »

فتفرّست ليلى وإخوتها فيه تسأله عيونهم جليّة الأمر فكان جوابه الحاسم أن انحنى فوق الصندوق واستخرج منه عقداً نفيساً من الدرّ تسطع حبّاته في يديه سطوع الكواكب فقدّمه إلى ليلى وقال :

ــ « اخلعي عنك يا ليلى هذا العقد من الخرز والوَدَع وتحليّ بهذا الجوهر الغالي واقبلي هذا العقد الثمين هديةً من الأمير عمرو بن ذي صهبان ابن ملك اليمن وعربوناً على خطبته يدك . »

كانت كلمة لُكَيْز الأخيرة قذيفة صرعت سامعيها فتمالكت ليلى نفسها وقالت لأبيها :

— « أنسيت يا أبي أن ابن عمي البرّاق قد خطبني إليك فوعدته بأن تزفّني إليه بعد عودتك من اليمن . » فقال لكيز :

— « لا لم أنس ذاك ولكن أي والد عاقل يرفض مصاهرة أمير ويؤثر عليها فتى من فتيان البوادي . » فقالت ليلى :

— « إن فتى البوادي هذا هو ابن أخيك . أتخفر ذمّته وتنكث معه عهدك لأنه من جبلّتنا يسكن الوبر كما نسكن . ويرعى الغنم كما نرعى . ويذود عن حمانا ببأسه وشجاعته . » فقال لكيز :

— « وإلى متى نظلّ نسكن الوبر ونرعى الغنم . أإن حانت لنا ثغرة ننفذ منها إلى النعيم والحضر أعرضنا عنها إكراماً لفتى لا يعدم أن يجد في أحياء ربيعة عروساً صالحة . » فقال الأخ الأكبر :

— « ربّيتنا يا أبي على حفظ العهود والمواثيق وإن الفتى منّا ليخرج عن الحياة طائعاً مختاراً في سبيل وعد قطعه على نفسه . أتريد أن تدمغنا القبيلة بالسبّة والعار وتجرّدنا من الشرف الذي هو ملاك حياتنا وتقول وعد لكيز فأخلف طمعاً في قربى الملوك وتهافتاً على الذهب والجوهر يبيع بهما ابنته بيع السماح ...» وقال الأخ الأوسط :

— « تُرَى لو غضب البرّاق غضبته وألّب علينا الأحياء

والعشائر أنرجو لنا فيهم نصيراً بعد أن نوصم بالعار والشنار . »

وقال الأخ الأصغر :

— « وما لنا نحن وأمير اليمن لئن ظن أنه يشترينا بالدرّ والذهب لقد خاب فألاً فالبرّاق في أعيننا وأنفسنا خير من ألف أمير لا نمتّ إليه بسبب من أسباب القربى والمحبة . »

هدّأ لكيز من ثائرة بنيه وقال :

— « على رِسلكم يا أبنائي ولا تضطرم فيكم حميّة الشباب فتتجنّبوا سواء السبيل . إن البرّاق عزيز عليّ وهو ابن أخي الحبيب الكريم وله في قلبي ما لكم من محبة وإيثار ولكن أنضحّي بأنفسنا فداه . فهذا الحب الذي بينه وبين ليلى يذكي لهيبه القرب ويطفئ أواره البعاد . . . »

فقاطعته ليلى قائلة :

— « إنه يا أبي حبّ لا يفصم عراه بيننا بعدٌ ولا قبر ولئن حلت بيني وبين البرّاق وسقتني إلى أمير اليمن لتسوقنّ إليه جسداً بلا قلب ولا روح فقلبي وروحي لا ينبضان ولا يخفقان ما حييت إلا بحبّ البرّاق والوفاء له . » فقال أبوها بلهجة لطيفة وادعة :

— « لو وقعت عينك يا ليلى على ما وقعت عليه عيني في حاضرة اليمن لما رضيت عنها بدلاً ولسرّك أن تعيشي فيها زوجةً

لرجل من سواد الناس . على أن الحظ واتاك فدعاك إلى أن تكوني زوجة أميرها وأنت تتعللين وتتمنّعين . . . » فقالت ليلى :

ــ « لا أعرف عن اليمن شيئاً غير أن الذي يدور على ألسنة الركبان أن المرأة فيها سلعة ومتاع فلا يتورّع الإخوة عن أن يتزوّجوا امرأة واحدة . . . » فصاح لكيز مُحْنَقاً :

ــ « هذا كلام هراء . تلك عادة قديمة أقلع عنها القوم منذ مئات السنين وكيفما كان الأمر فليس للأمير عمرو بن ذي صهبان إخوة ولا أخوات ولسوف تعيشين في قصره عزيزة الجانب تمشين على بسط الديباج وتلبسين الخزّ والحرير وتتحلّين بالدرر والجواهر وتتطيّبين بالمسك والغالية وتأكلين في آنية الذهب والفضة وتنامين على الفُرُش الوثيرة المحشوّة بريش النعام . . . » فقالت ليلى :

ــ « ثم ماذا . » فقال لكيز :

ــ « وأنّي سرت تحفّ بك الوصائف قائمات على خدمتك ليل نهار وستكونين في قصر الأمير بلقيس الثانية . » فقال الأخ الأصغر :

ــ « ومن بلقيس هذه يا أبي . » فقال لكيز :

ــ « سمعت في اليمن أخبارها فعرفت أنها ملكة عظيمة من ملكاتهم في القرون الغوابر وأنها كانت تنثر الدرّ والذهب

نثراً وتحلّي بهما قصورها ورياشها فقد قيل لي :

عرشها رافعٌ ثمانين باعاً   كلّلته بجوهر وفريدِ
وبدرٍّ قد قيّدته وياقو   ت وبالتبر أيّما تقييد

أفتتردّدين يا ليلى في أن تحلّي محلّها ونعيش نحن في ظلالك سعداء هانئين. أم تريدين أن نظلّ في ضنك ومتربة نرعى الإبل والغنم ونتلمس المراعي ومساقط الماء ونقتّر على أنفسنا الكفاف لندفع في آخر العام نصيبنا من الإتاوة إلى زهير ابن جناب الكلبي عامل اليمن على نجد والجزيرة . » فقالت ليلى :

ـ « هكذا خلقنا وعلى هذا سنموت. ولبسمةُ الفجر في البادية وذهبُ أصيلها المضرّج برمز جراحات أبطالنا أغلى عندي من كنوز اليمن بأسرها. ولَلْعيش طليقةً حرة في فضاء البادية الواسع الرحب وفي نجادها وسهولها المطهّرة بأشعة الشمس من رجس المدن وخناها أحبّ إليّ من الحياة أسيرةً سجينة في غرف القصور. ولَلبرّاق وهو البدويّ الجِلْف فارس ربيعة وفتاها وراعي الشويهة والبعير أحبّ إليّ من أمير خَرِعٍ ما امتدّت يده إلى سيف ولا إلى خنجر إلا ليتزيّن به ويتحلى. وإني لأؤثر أن أرى أبي وإخوتي سادات في عشائرهم أحراراً في مواطنهم من أن أراهم عبيداً في القصور يتصرّف في عزّتهم وإبائهم أمير

من الأمراء أو ملك من الملوك . . . » فصاح إخوتها الثلاثة :

— « نعمّا يا أختاه فما نطقت إلا صواباً . . . » فقاطعهم أبوهم وقال محتدّا :

— « لقد وعدت أمير اليمن بأن تكون ليلى زوجته ولا بدّ من أن أصون كلمتي ووعدي . » ثم التفت إلى ليلى وقال متودّداً :

— « خطبَك إليّ فلم يسعني أن أرفض طلبه ولا كانت لي القدرة على الرفض فقد رأيت في هذه المصاهرة سعادة أقتنصها لك يا ليلى ونهزةً أفترصها لخدمة أهلي وقبيلتي . » فقالت ليلى :

— « فجعلتني وجعلت البرّاق وقوداً لينعم بدفء السعادة أهلك وقبيلتك . » فقال لكيز :

— « كلاّ يا ليلى فما رأيتُ أوّلاً إلا هناءتك وسعادتك. أتذكرين يوم خطبك إليّ في العام الفائت برد بن طريح الإيادي فرددته خائباً لأنك لم تقبلي به عِرْساً فنزلت عند رغبتك واستمعتُ لما نفضْتِه لي من دخيلة صدرك فآثرتُ كما آثرت البرّاق على برد وبرد اليوم صاحب الكلمة المسموعة النافذة في بلاط ملك العجم . » فقالت ليلى :

— « أكنتَ تريدني عروساً لرجل غداً رخائن . » فقال لكيز :

— « كلاّ . وألف مرة كلاّ . فلو قبلت به بعلاً لعاش

بيننا وضممنا إلينا قبيلة إياد فكلنا من صلب معدّ ولما تمرّغ في حمأة العجم يأساً وانتقاماً ولكن دعينا من شأنه فقد عوّضت عنه بخير منه وبخير من ابن أخي البرّاق فأنت عروس الأمير عمرو بن ذي صهبان وعدته بذلك ولا بدّ من الوفاء بوعدي هذه كلمتي الأخيرة ولسوف أحملك إليه طائعةً أم عاصية . »

فقالت ليلى وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ «لتكن مشيئتك يا أبي فليست ليلى إلا ابنتك المطيعة ...»

فأقبل عليها يقبّلها ويحبس في عينيه دمعة حرّى كادت تنحدر على خدّيه ثم انقلب كلٌّ إلى فراشه يجرّ الخطى إليه جرًّا تاركين فاخر البرود ونفيس الحلى منطرحة على أرض الخباء تتلصّص عليهم عيون جواهرها وترقب منهم الحركات والسكنات . . .

٣

استاق لكيز إلى فراشه وطارت نفسه في جواء الفكر كل مطير وأخذ يسائل نفسه أتراه ظلم ابنته وفلذة كبده بإصراره على ما فرضه عليها . أتراها تعيش في قصر أمير اليمن عزيزة كريمة أم يستبدّ بها الأمير بعد مباهج الأيام الأُوَل وتخبو في صدره جذوة الرغبة فيها فيستحيل شأنها إلى شأن بعض الجواري والإماء ويهمل رعايتها فتحيا حياة كلها نكد وأحزان . وكيف تستطيع ابنته ليلى فيما يعرفه فيها من نفس حسّاسة وعزّة وأنفة أن تذعن لمثل ذلك المصير . إنها لا بدّ مُحدثةٌ أمراً تدوّي به أرجاء اليمن أو إنها قد تنطوي على نفسها مستسلمة إلى الهم والشجن يقرضان قلبها وينهشان روحها وسلمانها إلى تراب القبور .

وصل لكيز في تفكيره إلى هذه الخاتمة المفجعة فانتفض في فراشه وهمّ أن ينهض منه ويجري إلى ابنته ويقول لها : لا كان أمير اليمن ولا كانت هداياه ولا كانت كنوزه وقصوره وحسبك أنك أميرة البادية يحيطك فيها ابن عمك البرّاق بالحب والرعاية وتحفـّك العشيرة بالتجلّة والإكرام فعذراً يا ابنتي إذا

طرحتك في مطارح الشقاء وقبلت خطبة أمير اليمن دون تبصّر ولا رويّة .

وينتفض هنا انتفاضة أخرى يكاد يمزّق معها ثيابه وجسمه ويقول في نفسه هائجاً ثائراً أتراني كنت أستطيع أن أرفض طلب الأمير وأزدري نعمته الضافية في حين تلقيت عنها أطيب التهنئات . أكان يسعفني حيائي على أن أعتذر إليه وهو مَنْ هو مقاماً ورفعة شأن وأنا لم أرحل إليه إلا لأخطب ودّه بل لألتمس رضاه وعونه على ما نحن عليه من مظالم عامله وبأساء الحياة . عجباً لابنتي وأبنائي يتعامون عنْ هذا النعيم الوضّاح في سبيل عاطفة تختلج في جوانح ليلى والبرّاق وأغلب الظن أنها عاطفة القربى والحداثة فلا يصعب أن يضحّى بها طلباً للعزّ المقيم والثراء العريض والنعمة الوارفة. لا لا ياالكيز إنك لم ترتكب إدّاً ولا عققت البنوّة وإنما التمست لابنتك وأهلك وعشيرتك الخير والرزق والسّند القويّ .

وكأنما ارتاحت نفسه لهذا الحكم الذي اختتم به مناجاة ضميره وكأنما وعثاء السّفر قد فعلت فعلها في جسمه المتعب فاستسلم للنوم وغرق في سبات عميق .

أما أبناؤه الثلاثة فكانوا هم أيضاً فريسة الهواجس فلم يذوقوا طعم الرقاد إلا في الهزيع الثاني من الليل فقد عزّ عليهم

أن تُطعن أختهم هذه الطعنة النجلاء في قلبها الخفّاق بحبّ البرّاق وعزّ عليهم كذلك أن يقلب أبوهم لابن عمهم ورفيق طفولتهم وشبابهم ظهر المِجنّ ويفضّل عليه أميراً لا يعرفونه ولا يشاكلهم في العاطفة والمعاش .

وأكبروا أن تقابل العشيرة أباهم بما لا يحبّ إذا هي عرفت غداً أنه نكث وعده وأخفر ذمة البرّاق فما من فتًى ولا شيخ فيهم إلا ويعدّ البرّاق فخر القبيلة وحامي الذمار .

ولم يحتفل هؤلاء الفتيان الثلاثة في تفكيرهم واضطراب نفوسهم بكنوز أمير اليمن ولا بجاهه ومجده وقوّته مثل احتفالهم بعبرات أختهم الوالهة وصيحات البرّاق إذا ركبه الغضب وصاح في الأحياء حيَّ على الثأر . إنهم لا بدّ ناصرون أباهم ظالماً أو مظلوماً ولكن بأي قلب وبأي ساعد يجرّدون سلاحهم في وجه حبيبهم وخدْن صباهم .

وما زالوا على مثل هذه الهواجس والمخاوف حتى غلبهم النعاس على أمرهم فناموا .

وأما ليلى فلم تذق طعم الكرى طول الليل ولا غمض لها فيه جفن كأنّ فراشها حشيّة من قتاد تتقلب عليه معذّبةً متألمة .

هالها أن ترى قصور أحلامها قد انهارت بلمحة عين

وأن يكون أبوها هو الذي هدّها بيديه الغاشمتين . لم تفكّر فيما ينتظرها من نعيم في قصر عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن ولا أغرتها كنوزه التي رأت شعاعاً منها فيما قدّمها لها من حلي وحلل ولا أدركتها الشفقة على نفسها بعد إذ قُدّر لها أن تعيش في تلك الديار النائية بلا قلب ولا عاطفة تجرّ الحياة فيها سلسلة شقاء وغمّ ثقيلة الحلقات . وإنما انحصر فكرها في حبيبها البرّاق فأشفقت على نياط قلبه أن تتمزّق حسرةً وأسىً وخشيت أن يتّهمها بالغدر والخيانة مع أنها الوفيّة لعهده الصادقة الهوى والوداد .

وكانت كلما ذهب بها الفكر إلى غير البرّاق عاد بها إليه فتخيّلته إزاءها تقدح عيناه بشرر الغضب والاحتقار وتنفرج شفتاه عن أقسى ألفاظ الملامة والعتاب فتثور ثائرتها وتنقلب من جنب إلى جنب وتدسّ رأسها تحت وسادتها هرباً من تلك النظرات القاسية المستعرة بجمرة السخط حيناً والمعبّرة عن ذلة الاستعطاف حيناً آخر تخترق فؤادها في جنح الدجى البهيم .

فإذا هدأ روعها قليلاً دمعت عيناها وانحدرت عبراتها على خدّيها فشربتها في صمت وسكون وأروت بها غليلها الملتهب وتذكّرت الأيام الحلوة الجميلة التي قضتها والبرّاق منذ

عهد الطفولة والحب الأخوي إلى عهد الشباب والحب القويّ العنيف .

تذكرت حداثتّها وحداثته كيف كانا يرعيان فيها البهم معاً ويمرحان في الأودية والغابات تقاسمه طعامها ولكن إذا شاء أن يقاسمها طعامه أبت ونفرت منه نفور الخشف الشارد فيلحق بها وتنتّهي المطاردة بينهما بأن يتدحرجا معاً على العشب الأخضر النضير .

تذكرت عند بلوغ أشدّهما وانعقاد تاج الشباب على مفرقيهما كيف كان يغار على سمعتّها فلا يبدؤها بالسلام إذا التقي بها ولا يسعى إلى خلوة معها تحت خميلة من الخمائل أو وراء ملتفّ الشجر وغاثرات الصخور حتّى ظفر بوعد أبيها فعرف رجال العشيرة ونساؤها أنه عروسها المنتظر .

تذكرت مبلغ نخوته وفضيلته وكيف كان ينافسها في العفاف والإباء إذا تلاقيا في معزل من الناس وبثّ كلّ صاحبه غرامه وصبابته فما بدرت منه يوماً بادرة تجرح العفاف وتخدش التصوّن فقد كانا كلاهما فرسي رهان في كبح جماح الشباب وإغرائه لا رقيب عليهما إلا العفاف وإلا التجلة التي كانت توازن حبه وهواه .

تذكرت كيف كانا في العهد الأخير يجلسان معاً تحت

ظلال الأراك يحلمان بالسعادة ويبنيان مقاصير الهناءة في جنّات الحب والهُيام ويرتقبان اليوم السعيد الذي يصبحان فيه زوجين أمام الله والناس كما علّمهما ذلك الراهب النصراني الذي كانا يتردّدان عليه في صومعته الفينة بعد الفينة .

تذكرت كل هذا وأكثر من هذا وعرضت لحياتها حتى تلك الساعة في الباديةّ فتجلت لعيني بصيرتها ناضرة كالريحان ملألئة كوجه الربيع صافية كقطرات الندى على ما اعتورها من قسوة العيش في الإقامة والظعن والتعرض لغارات الخصوم والأعداء .

وحانت من فكرها التفاتة عارضة إلى حياتها المقبلة فبدت لها جافّة يابسة كالهشيم كالحة كأسداف الظلام كَدِرة رَنِقة كالماء الآسن مازجه التّراب وغشّته الطحالب وبدت لها سجناً برياش من الحرير وقضبان من الذهب .

وساءها أن يكون أبوها سبب نكبتها ونكبة حبيبها ولكنها أمسكت عن أن تناله بملام فما حرّك شفتيه بالرضى إلا موقناً بأنه يعقد لها السعادة والنعيم ولئن لم يشاورها على عادة أهل البادية كما شاورها يوم خطبها إليه برد بن طريح إنّ بُعْدَ الشُّقّة وجلال النعمة السانحة فضلاً عما تعرفه فيه من حياء العذراء كل هذا جعله يقبل طلب الأمير ويظن أنه يحسن صنعاً .

فإن جرت الرياح بما لا تشتهي فما الذنب ذنب والدها وإنما هو وحي سوء طالعها فلا معدى لها عن طاعة أبيها وإعداد نفسها لاستقبال حياتها الجديدة وفيّة ً مطيعة لزوجها العتيد واهبة إياه كل ما تملك من بواعث إسعاده وإن كانت لا تملك أن أن تهبه قلبها الجريح .

وآلت على نفسها حلفة صادق أن تعفّ عن زخارف الحياة في قصر صنعاء حتى يبلغها أن حبيبها البرّاق قد سلاها وسلا هواها واستعاض عنها بعروس أخرى توطئ له أكناف السعد والهناءة .

وعندما انتهت إلى هذا النحو من مغالبة النفس وإقناعها كان الفجر قد انبلج وبدأت خطوطه الورديّة تتسرّب إلى ليلى من شقوق الخباء فوثبت من فراشها ومضت تعدّ طعام الإفطار لأبيها وإخوتها .

ولما اجتمعت الأسرة في الصباح لم يعقّب واحد منهم على حديث الليل خشية إذكاء النار المتوارية تحت رماد الصبر والاستسلام وإنما دارت أحاديثهم على مختلف المسائل .

وحين تضرب الضحى أطنابها يكون إخوتها الثلاثة قد غادروا الخيام إلى المراعي وتكون ليلى قد تركت هي أيضاً الخباء وذهبت تتوغّل في الحقول تجمع منها بعض الكمأ

فلا يبقى في الخباء إلا لكيز يتولى فيه بعض الشؤون ويستقبل رجالات العشيرة.

وفي الجانب الآخر من الوادي المتناثرة فيه خيام ربيعة قضى البرّاق ليلته فريسة الأرق والتفكير فإنه بعد أن حيّا أباه وإخوته واستلقى إلى فراشه حاول هو كذلك أن ينام فما استطاع فبقي طول الليل ساهد الجفون ساهر العين يقيمه الفرح ويقعده ويحول بينه وبين لذّة الوسن. وفيمَ يطلب لذّة الكرى وهو من الفرح الفيّاض والأمل الباسم والهناءة الموعودة في بهجة لا تعادلها بهجة وفي لذة ترفرف فيها روحه وتسبح بها في سموات النعيم.

تنقل فكره من فرحة إلى فرحة وطار على أجنحة الآمال يستشرف غده السعيد وما تخبّئه له الأيام في مطاويها من عيش ناعم هنيء في جوار حبيبته ليلى العفيفة الوفية المحبة المخلصة.

وبقي على هذه الحال من الغبطة الجارفة حتى علق فكره بأمر نغّص عليه أحلامه العذبة وأثار في نفسه الشكوك والظنون. فقد ذكر أن أمّ الأغرّ رغبت إلى عمّه لكيز وهي منصرفة أن يعجّل في تحديد يوم الإملاك فيوم البناء وأنها في شوق إلى الأفراح وإلى جلوة ليلى أحسن جلوة وذكر أن عمّه لكيزاً لم يجب

أم الأغرّ ولا أعرب عن رأيه فيما رغبت إليه فيه . ولقد كان رنين كلماتها حلواً على مسمعه فنزل برداً وسلاماً على فؤاده فلم يفطن إلا الساعة إلى صمت عمّه وإمساكه عن الجواب . فما من شكّ أن وراء الأكمة ما وراءها وإلا فعلامَ سكوت عمّه وإحجامه حتى عن شكر أمّ الأغرّ على عاطفتها الجميلة .

ضاق صدر البراق بهذا الذي نتج عنه تفكيره فأخذ يضرب أخماساً بأسداس ويتلمس العلة وراء سكوت عمّه فلا يجدها ويغوص في متاهات الظنون فتزيده ضلالاً فوق ضلال .

ولمعت في خاطره ذكرى برد بن طريح الإيادي فجنّ جنونه وأنشأ يسائل نفسه أتراه لحق بعمّه إلى اليمن وعاود الكرّة في مبتغاه وأمعن لديه في ضروب التحبّب والإغراء حتى قبل عمّه أن يزوّجه ليلى . ولكن أينقض عمّه ويبرم في مثل هذا الأمر الجلل دون أن يشاور ليلى وهي صاحبة الحلّ والعقد في زواجها واختيار العروس الكفء الكفيّ ولا سيما أن ليلى لم ترض ببرد ابن طريح زوجاً يوم هبط إلى العشيرة في العام الماضي وخطبها إلى أبيها فكيف يرضى اليوم ما رفضته هي بالأمس .

ودار في خلده أن ليلى قد تكون انساقت إلى رغبة أبيها وقد يكون أبوها شاورها على بعد المزار وأرسل إليها بعض الرسل في ذلك . ولكن لا فما نزل بالجزيرة أحد من اليمن في هذه الحقبة

التي غاب فيها عمّه عن أرباض الجزيرة بل إنه ليذكر كيف كانت ليلى قبيل رجوع أبيها قلقة مضطربة توجس خيفة من غيابه الطويل . ولئن صحّ كل هذا لتكوننّ ليلى قد غدرت به وكتمت عنه خفيّ أمرها وأظهرت له غير ما تضمر ومعاذ الهوى والشرف والعفاف أن تنزلق ليلى إلى هذا المنزلق فما عرف فيها إلا شريف الخلال ومستقيم القصد وعفيف المرام وإنه ليجترح شر الجرائر إذا عزا إلى ليلى غير ما يعرفه فيها من شيم وشمائل أو راودته المظنة في حبها ووفائها .

وكأنما لسعته أفاعي هذا الجرم فهبّ من فراشه مضطرباً مذعوراً وهو الذي لا يعرف الاضطراب والذعر إلى قلبه سبيلاً فخرج من خبائه يلتمس في محيّا الفجر الزاهر تبديد هواجسه الغائمة وارتشاف ندى السكينة والعزاء من مقلة الصباح .

ويشاء حظه العاثر أن تزداد مخاوفه ضغثاً على إبّالة فلا يكاد يخلص إلى خارج الخباء حتّى تقع عينه أوّل ما تقع على شجرة من شجر الخلاف[1] فيربدّ وجهه وينكمش قلبه ويوقن بسوء المنقلب ويرى في تلك الشجرة التي طالعته نذير السوء .

---

(١) صنف من شجر الصفصاف يورق ولا يثمر .

أفليس شجر الخلاف في عاداتهم ومصطلح أمرهم سبيل القطيعة ورمز الهجران . لقد تحقق إذن من قطيعة ليلى وهجرانها وهذه الشجرة العاقر هي الدليل .

وفاضت به غُلواء نفسه وجَيَشان صدره فراح يذرع الأرض الممتدة حول خبائه ويقيسها بخطواته الصارمة جيئةً وذهوباً لا يستقرّ ولا يهدأ .

وكان الصباح قد غمر الهضاب والبطاح بلألاء ضيائه وبدأت الحركة تدبّ في الأخبية والخيام وعمدت يواقظ الطير تهجر أعشاشها مصفـّقة بأجنحتها مترنمة بأصواتها. وكان البرّاق لا يزال يدقّ الأرض بنعله الغليظة في خطوات فِساح فمرّ به غراب ينعب فقامت قائمته وصاح في الغراب : « طائر الله لا طائرك» واستدار على عقبيه عائداً إلى خبائه حزيناً أسِفاً . فهذا غراب البين ينعب في أذنه وينذره بالقطيعة فقد وضح الأمر واستبان لذي عينين وقامتْ عليه الأدلـّة . فمن صممت عمّـه عن جواب أمّ الأغرّ إلى شجرة الخلاف رمز الهجران والجفاء إلى نعيب الغراب المنذر بالبين والرحيل .

وتزدا دنفسه همًّا وغمـًّا ويزداد يقينه بالخطب المرتقب عندما يصطدم بثالثة الأثافي من نُذُر الشؤم في ذلك الصباح . فبينا هو منقلب إلى خبائه رأى كلباً أبتر يرود حول الخباء

فقال في نفسه لقد كملت النُّذُر فالناس تتطيّر من الكلب الأبتر إذا لمحته عن بعد فما بالك إذا جاء إليك يبصبص بذنبه المقطوع ألا إن المصيبة واقعة لا محالة.

ودخل إلى خبائه هائجاً هياج الثور لا يدري على من يصبّ جامات غضبه الذي يغلي في صدره غليان القدر فوق مارج النار ولا إلى من ينسب خيبة أمله في الحياة كأنْ لا جدال في تلك الخيبة المرّة والنقمة القاتلة .

٤

سرى نبأ خطبة ليلى إلى أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان في أحياء ربيعة مسير النار في الهشيم فكان حديث الناس في خيامهم ومراعيهم تتناقله الأفواه وترويه الألسنة في روايات متباينة ويعلق عليه الرّواة وفق أهوائهم ومتضارب عواطفهم .

تلقّت النساء الخبر إلا أقلهن في كثير من الحسد والأمل وفي قليل من الابتهاج فقد كانت كل فتاة تود لنفسها مثل هذا السعد الصارخ . أمّا وقد فاتها فلا أقلّ من أن تمنّى النفس بتطلع البرّاق إليها وانتخالها دون فتيات الحمى عروساً أثيرة . وكانت النساء ممن تربطهن بالبرّاق أو بليلى صلة رحم وقربى وعلى رأسهن أمّ الأغرّ باديات السخط والغضب يتناولن لكيزاً بالنقد اللاذع وينحين عليه باللائمة .

وانقسم الرجال في هذا إلى فريقين : فريق يرجو من هذه المصاهرة أن تخفّ عن كواهلهم إتاوة زهير بن جناب الكلبي عامل ملك اليمن على الجزيرة وأن تفتح لهم أبواب الرزق في أرجاء اليمن فيستعيضوا عن الغزو وارتياد المراعي بتسخير إبلهم في نقل السلع من اليمن إلى ما جاورها أو ابتعد عنها من

البلاد فقد كان يبلغهم أن القوافل لا تفتأ ترتاد ربوعها خِفاف الجيوب وتعود منها مملوءة ثقيلة محمّلة بالبخور واللبان والمرّ والخشب أو بالعاج والذهب والحجارة الكريمة . وفريق وفي طليعتهم أبو البرّاق وإخوته وصديقه الحميم كليب وأخوه المهلهل عزّت عليه جفوة البرّاق ونكث عهده وهو فتاهم وحبيبهم وفارسهم المغوار كما عزّ عليهم بَيْنُ ليلى وهي فتاتهم الأديبة الحصيفة العاقلة ودرّة قبيلتهم المتألقة . وكذلك شقّ عليهم أن يركب لكيز هذا المركب الوعر وهو سيدهم وحكيمهم المشهور فيهم بالفضل والنبالة فتوقعوا أن تقوم الفتنة بين لكيز وأخيه أبي البرّاق وأن يندلع أوارها إلى أحياء ربيعة فيتنافر الرجال ويحكّمون السلاح فيما بينهم فيولغ الأخ في دم أخيه ويتحاجز أبناء الأعمام ورجال القبيلة الواحدة فتسيل دماؤهم على ظبي الرماح وشفرات السيوف وهم أحوج ما يكونون إلى الألفة والوحدة درءاً لغارات الأعداء وإبقاءً على عزّة القبيلة وقوّتها .

وعبثاً حاول الحكماء من رجال القبيلة أن يثنوا لكيزاً عن عزمه فما أجدت مساعيهم فتيلاً وكانوا كلهم في دهشة من سكون البرّاق وآله ولا سيما أن قد مرّ على عودة لكيز من السفر وانتشار الخبر في الأحياء عدة أيام فأشفق القوم أن يكون ذلك السكون هو الهدوء الذي يسبق العاصفة فقرّ قرار

كليب وأخته أمّ الأغرّ أن يحاولا المحاولة الأخيرة ثم ليكن ما يكون .

خفّ كليب وأخته أمّ الأغرّ إلى لكيز في ضحى أحد الأيام فألفياه عند باب الخباء يسرّح النظر فيما حوله من غياض ويبدو عليه الذهول والتفكير العميق فبادرته أمّ الأغرّ قائلة :

ـ « عم صباحاً أيها السيد الكريم . » وأردف كليب تحية أخته بتحيته وقال :

ـ « عم صباحاً أيها السيد السَّند . » فالتفت لكيز إليهما كمن أفاق من حلم وقال :

ـ «عمي صباحاً يا أمّ الأغرّ وعم صباحاً يا كليب . أهلاً بكما ومرحباً . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « وأين ليلى . » فقال لكيز :

ـ « أخذت مغزلها وذهبت ترتاد بعض الحقول وسترجع عما قليل. » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « ذهبت لا شك تسرّي عنها همّها القاتل . يا لها من شقيّة مسكينة . » فالتزم لكيز الصمت ولم يجب فقال كليب :

ـ « جئناك يا لكيز يحدونا الأمل الأخير أنك مصغٍ لرجاء القبيلة ممثّلاً في رجائنا وهو أن تعدل عما صممت عليه وتزوج ليلى بالبرّاق . » فقال لكيز :

ـ « رجاء حبيب إليّ ولكن لات ساعة رجاء . . . »
فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « كيف يطاوعك قلبك يا لكيز ومنزلة ليلى منك ومنا في الصميم أن تمزّق قلبها وتدمع عينيها وتقضي على أملها الباسم وشبابها النضير . » فقال لكيز محنقاً :

ـ « كفيّ يا أمّ الأغرّ عن قوارص الكلم فما توخّيت إلا سعادة ليلى وكرامة القبيلة فيما فعلت . » فقال كليب :

ـ « أليس من كرامة القبيلة أن ترعى فتاها وفارسها وتنيله رجاءه المشروع . » فقال لكيز :

ـ « أتريدني يا كليب أن أنقض عهداً أبرمته أنا وأمير اليمن وأن أفرّط في هدية ابن الملك . » فصاحت أمّ الأغرّ :

ـ « إنها هدية البرّاق لا هدية ابن الملك . » ثم قال كليب :

ـ « أما من سبيل يا لكيز إلى الرجوع عما في نفسك . »
فقال لكيز :

ـ « هذا ضرب من المحال فقد وعدت وعليّ البرّ بالوعد . » فقال كليب وقالت معه أمّ الأغرّ :

ـ « ولماذا وعدت . » فقال لكيز :

ـ « غلبني الحياء فأذعنت . » فقال كليب :

ـ « ألا تؤثر أن تحقن الدماء في قبيلتك. » فقال لكيز متعجّباً :

ـ « وفيم تراق الدماء . » فقال كليب :

ـ « حفاظاً على شرف البرّاق وآله . » فقال لكيز :

ـ « أكاشفك البرّاق برغبته في الثأر . » فقال كليب :

ـ « كلاّ. غير أني أتوقع أن يثور ثورته وينتصر له آله وبعض رجال العشيرة . » وأردفت أمّ الأغرّ :

ـ « هذا لا شك فيه . » فتبسّم لكيز ابتسامة صفراء ولاح في عينيه بريق الفخر والنصر وقال :

ـ « اطمئنّا بالاً ولتطمئن معكم العشيرة كلها فلن يجرّد أحد حساماً ما دام البرّاق وهو فارس ربيعة لا يريد ذلك . » فقال كليب :

ـ « وأنّى لك أن تأمن جانب البرّاق وهو من تعرف إباءً وشرفاً وشجاعة . » فهزّ لكيز رأسه وبدت على وجهه مظاهر الألم وقال :

ـ « لقد كان هنا منذ قليل وضرب لي أروع الأمثلة لسموّ النفس ومكارم الأخلاق . إنه ابن أخي وأنا أعرفُ الناس به . » فصاحت أم الأغر متعجبة :

ـ « أوَجاء إليك ودخل خباءك وحدّثك وجهاً لوجه بعد

لطمتك إياه . إن هذا لهو العجب العجاب . » فقال لكيز :

ـ « سمعت الألسنة تلوك الوشايات وتخوض في الأعراض وأدركت أننا سنكون جميعاً حطب الفتنة ووقودها فدعوته إليّ بعدما بدا لي من تعنّت أبيه وإخوته وأطلعته على دخيلة نفسي وبينت له أني أخذت بطلب أمير اليمن فما استطعت له ردّاً وبصّرته بالمنافع التي تجنيها القبيلة من جرّاء هذه المصاهرة فقد نحل محلّ بني كندة حلفاء اليمن وقد نعود إلى منازلنا الأولى في تهامة ونمدّ سلطاننا على نجد والحجاز . . . قلت له كل هذا فسألني :

ـ "وليلى . ألها يد في اختيار أمير اليمن زوجاً لها ." فقلت :

ـ "لا . وإنما فرض عليها فرضاً فضحّت بنفسها وبحبها لك فدى العشيرة ." فارتاح قلبه وقال :

ـ "ليكن ما أردت يا عمّاه. أما أنا فسأخمد نار الفتنة وأذرّ عليها الرماد . . ." ثم أطرق هنيهة وغمغم بينه وبين نفسه وقال :

ـ "ولكنني راحل بأهلي عن الديار ولن يحول مخلوق بيني وبين هذا الرحيل ."

فتبيّنت مضاء العزم في عينيه فسكتّ ونهض إليّ فقبّلني وقبلّته ودعا لي بالخير ودعوت له بالسلامة والسلوان وانصرف . »

فانهالت عبرات أمّ الأغرّ على وجنتيها فمسحتها بكمّ ثوبها وقالت :

— « إذن قضي الأمر . » وردّد كليب في غصّة ولوعة كلمة أخته وقال :

— « إذن قضي الأمر . »

وأقبلت ليلى في تلك اللحظة فحيّت الزائرين وأدركت من وجومهما ومن أثر الدّمع في وجنتي خالتها أمّ الأغرّ أن هنالك أمراً يشغل منهما البال ويعصف بالقلب فأمسكت عن السؤال حتى أخبرها أبوها بمسعاهما الحميد وجوابه الحاسم فقالت بلهجة حازمة :

— « شكراً لك يا خالتاه وشكراً لك يا خالي . . . اطويا البساط عن هذا الشأن وليكن ما تجيئنا به الأيام . . . »

وعندما يتمّ أبوها حديثه فتعلم ما جرى بينه وبين البرّاق تعلو وجهها الورديّ غلالة من صفرة الأسى ويحزنها أن يرحل البرّاق عن عشيرته ويضرب في البلاد مهيض الجناح مكلوم الفؤاد غير أنها التمست شيئاً من العزاء وراحة الضمير لما علمت أن الريب لم ترق إليها في خاطر البرّاق وأنه ينزّهها عن الغدر والجفاء ولشدّ ما أكبرت فيه الخلق العالي والنفس السامية والقلب الكبير بعد إذ عرفت أنه إنما يرحل عن الديار تجنباً للفتنة وإبقاءً

على هيبة أبيها لكيز وقطعاً لدابر التخرّص والأقاويل . فهمّت بالكلام فما استطاعت فقد خنقتها العبرة وعصر قلبها الألم فنابت العيون الدامعة عن الألسنة الناطقة وما استطاع حتى لكيز وكليب أن يحبسا دمعة حرّى انفلتت من الجفون لتدلّ على مقدار الأسى والحزن في بكاء الرجال .

واستأذنت أمّ الأغرّ وكليب في الانصراف فشيّعهما لكيز وليلى فانطلقا عائدين إلى مثواهما في كآبة ظاهرة وحزن عميق .

ولما بلغا في طريقهما خيام البرّاق وأهله طرقت مسامعهما أصوات جدال محتدم فأيقن كليب أن القوم في ثورة وتمرّد وخشي أن يقرّ قرارهم على رأي لا تؤمن فيه العواقب فأوعز إلى أخته أمّ الأغرّ أن تتابع السير إلى المثوى وأنه سيلحق بها عما قريب بعد أن يطالع القوم لعله يخمد فيهم ثورتهم المتأججة .

فسارت أمّ الأغرّ في طريقها ودخل كليب على خيمة البرّاق فوجد فيها صديقه البرّاق قد جلس إلى جانب أبيه في صدر الخباء وتفرّق أخوته الأربعة في الزوايا وعلامات الغضب مرتسمة على وجوههم فحيّاهم وحيّوه حتى إذا استوى به المقام سمع أبا البرّاق يقول :

– « لقد طال جدالنا يا أولادي في غير رأي أجمعنا عليه فلو أن أخي لكيزاً شاء العدول عن عزمه لفعل فحتّام نصبر على الضيم فالتمسوا إذن ما يكون فيه صلاح أخيكم أبي النصر البراق وسلامة أعراضكم من العار. » فقال ابنه عمرو :

« تخيّر أبا عمرو فأنت مخيّرٌ   وصرّح بما أحببته في أبي النصرِ » *

ثم تكلم ابنه غرسان وقال :

« لكل امرئ رأي له ومشورة   ومجنبة فيما يشا ويشيرُ
وما من فتى إلا له من أموره   مقاصد فيها لا يزال يسير
فإن يرد البراق شـيئاً فإننـا   نسارع فيما يشتهي ونطير
وإن لم يرد شيئاً فما بعد قولكم   وها هو عليكم حاكمٌ وأمير

وهمّ ابنه الظليل أن يقول كلمة فلمح كليب في عينيه أنه سيدعو إخوته إلى الطعن والضرب وسيسحب الذيل على رأي غرسان الذي وكل الأمر إلى أخيهم البرّاق فاعترضه كليب وقال :

---

* أبيات الشعر فى هذه القصة منسوبة إلى قائليها ومنقولة عن كتاب « شعراء النصرانية » ج ١ للأب شيخو وعن كتاب « الجمهرة » لعمر بن شبه وهو مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١١٩٤ أدب .

— « نعم الرأي رأي غرسان فالأمر موكول إلى البرّاق فليقضِ فيه بما هو قاض وعلينا أن ننزل على حكمه طائعين ... »

جرؤ كليب على أن يقول ما قال لأنه كان قد عرف من لكيز أن البرّاق مصمّم على الرحيل ولكنه كان حائراً في سكوته على حين يُرغي إخوته ويزبدون .

وقبل أن يردّ أحد على كليب نهض البراق فاشرأبت إليه الأعناق وتعلقت بشفتيه الأبصار وكان قد لزم الصمت طول الجدال لما كانت نفسه عليه من وجد واضطراب فقال :

— «شكراً لكم جميعاً على حميّتكم المضطرمة ومحبتكم الخالصة على أني لا أريد أن تشتعل نار الفتنة في القبيلة من أجلي ولست أرى في هذا الأمر العارض إلا خطة واحدة تنهّج ألا وهي . . . »

فصاحوا كلهم بلسان واحد :

— « ألا وهي . . . » فقال البرّاق :

— « الرحيل . . . » فردّدوا جميعاً :

— « الرحيل . . . الرحيل . . . » فقال أبوه روحان :

— « وإلى أين يا برّاق . . . » فقال البرّاق بعد تفكير قليل :

— « إلى بني حنيفة قومنا في البحرين . . . » فقال إخوته بصوت واحد :

— « إلى بني حنيفة . . . إلى بني حنيفة . . . »

واغتبط كليب بما رأى وسمع وإن يكن قد عزّ عليه أن يفارق صديقه الحميم البرّاق بن روحان فقال في نفسه : الرحيل ولا الفتنة . ثم ودّع القوم وانصرف تتنازعه العواطف المضطربة المتضاربة .

وفي صباح اليوم التالي قوّض أهل البراق خيامهم وشدّوا رحالهم وجمعوا إبلهم وسوائمهم وساروا ظاعنين يتقدّمهم البرّاق على مهرته «شبوب» فخرجت القبيلة عن بكرة أبيها تودّعهم وتشيّعهم بالحسرة البالغة والدمعة المكتومة فازدحمت المسالك والشعاب بالرجال والنساء وامتلأت بهم ساحات الخيام وأخذوا يحيّون الركب الراحل ويخصّونه بجميل الوداع .

وتبلغ أصوات الجلاجل المعلقة بأعناق الجمال مسامع لكيز وليلى وإخوتها فينفرون إلى خارج الخباء ويشرفون من علٍ إلى الطريق تسير فيه القافلة الظاعنة فما هي إلا دقائق حتّى تصل مقدمة الركب إلى سفح الربوة المنصوبة فيها خيام لكيز فيصيح هذا بملء صوته :

— « مع السلامة يا أخي روحان . . . » وتصيح ليلى بصوت متهدّج :

— « مع السلامة يا روحان ... »

فيقف البرّاق مهرته ويردّ هو وأبوه على التحية وتلتقي نظرات ليلى والبرّاق فتسري في جسديهما رعدة يخفق لها القلب وترتجف الأوصال .

يحدّق البرّاق في ليلى بعد أن توارى عنها وتوارت عنه منذ رجوع أبيها فيأخذه جمالها المشرق وما هو إلا شعاع من نفسها الوضّاءة وكمالها الوضّاح وعقلها الثاقب ويذكر أن هذا الكنز قد كان له فانتزعته منه الأيام ويودّ قبيل الرحيل الذي لا لقاء بعده لو يقبّل موطىء قدميها ويتزوّد بحفنة من التراب الذي تمشي عليه .

وتحدّق ليلى في البرّاق فيأخذها منه شبابه الغضّ المتألق في محيّاه ويهزّ قلبها جماله المتلألئ في بريق عينيه السوداوين الجميلتين وشعاع جبينه الناصع وخدّيه الناضرين وشفتيه الرقيقتين تفترّان عن أجمل ابتسامة إذا ابتسم ويملأ عينيها وفؤادها منه رجولةٌ بادية الأجلاد في منكبيه العريضين وصدره الواسع وذراعيه المفتولتين ونفسٌ تعرفها فيه لا تبالي الأخطار ولا تخشى الردى فتدرك في تلك اللحظة الرهيبة أنها إنما تشيّع حشاشتها فتودّ لو عصت أباها وجرت إلى البرّاق تقول له : ابقَ يا برّاق ولا ترحل فأنا عروسك وأنت عروسي .

ولكن هيهات . . . فها هي ذي القافلة تستأنف السير

وها هو ذا البرّاق يلوّح لها ولأبيها وإخوتها بيده مودّعاً وهو يحثّ مهرته على المسير فتفيض نفسها حسرات وتغرورق عيناها بالدموع وتقول :

« تزودّ بنا زاداً فليس براجع إلينا وصال بعد هذا التقاطع
وكفكف بأطراف الوداع تمتعاً جفونك من فيض الدموع الهوامع
ألا فاجزني صاعاً بصاع كما ترى تصوّبَ عيني حسرةً بالمدامع »

وتجدّ القافلة في السير ويرجع المودّعون إلى مواطنهم وتبقى ليلى جامدة في مكانها شاخصة ببصرها إلى القوم الراحلين حتى اختفوا وراء الآكام ولفّهم الأفق بحجابه ومحا منهم حتى الصور والأشباح . . .

٥

توالت الأيام على ليلى بعد رحيل البراق رتيبة قاحلة تقوم فيها على خدمة أبيها وإخوتها وتدبير شؤونها وشؤونهم على النحو الذي ألفته وألفوه منها . وكانت كلما اتسع لها وقت من أوقات الفراغ اعتمدت مغزلها ومضت تغزل صوفها على ربوة من الروابي أو في غابة من الغابات تتحرك يداها في غير ما وعي ولا توجيه وتنقل بصرها فيما حولها من مراعٍ ومروج فلا يقع منها على شيء كأنها تراها ولا تراها . وكانت البقاع التي تؤثرها بالمحبة والزيارة تلك البقاع القائمة على الطريق التي سلكها البرّاق متجهاً إلى البحرين فلطالما تمشّت فيها أو جلست فوق هضابها وهي تسرّح النظر في الأفق البعيد وتتخيله سينشقّ عن وجه حبيبها البرّاق عائداً إليها وحده أو راجعاً على رأس قومه حتى إذا استيقظت من غفوتها الحالمة وطالعتها الحقيقة بوجهها الدميم جفلت وارتاعت وانطلقت منها الزفرة تلو الزفرة .

وكثيراً ما عرّجت على المكان الذي كان مضرب خيمة البرّاق تطيل النظر إلى ما تركته الخيمة المقوّضة من نُؤي

وأحجار ومن ثغرات في الأرض كانت مربط العمد والأطناب ومن أثاف سود كانت تشبّ في جوفها النار وتغلي فوقها القدر التي كان البرّاق يأكل منها ويُطعم فتبتلّ عيناها بالدموع وتمشي على تلك الأرض الحبيبة مترفقة خاشعة يعبث بفؤادها التذكار وتسحقه أثقال الحنين . فكم استسلمت في ذلك المكان إلى المناجاة وقالت في نفسها :

هنا الأريكة التي كان يجلس عليها وينام ... هنا موضع نعله ... هنا صوان ثيابه...هنا مجمع أسلحته ... هنا مغسله... في هذه الزاوية من الخباء كان يعلّق جلود الوحوش التي اصطادها وسلخها... سعداً لك يا أرض الحبيب لقد نعمت بقربه وهنئت بإيوائه وكنتُ أنا على قاب قوسين أو أدنى من مجيئي إليه والعيش في جانبه أبد العمر فوق سطحك المبسوط ولكنه فارقني وفارقك بعد إذ حال بيننا ضعف أبي وذهبُ الأمير فكلانا الحريب المحروم وكلانا الشقي التاعس المهجور . . .

وكانت لا تفتأ تردّد في نفسها مثل هذه الخواطر إلى أن يفاجئها قادم أو تنذرها الشمس بالمغيب فتعود القهقرى إلى خبائها لتلقى فيه أباها وأخوتها .

وكان أبوها قد راجع نفسه فيما رآه من شحوب ليلى وسكوتها الناطق بالهمّ والأسى وعرف أنه ظلمها إذ فرّق بينها وبين

حبيبها البرّاق وأهداها إلى أمير اليمن فتباطأ في تجهيزها للسفر رجاء أن يستبطئ الأمير قدومها فيعدل عنها إلى أخرى من العرائس. وأنهى لكيز إلى أمّ الأغرّ بما جال بخاطره وانتواه فأمّنت على رأيه وضاعفت عنايتها بليلى وحدبها عليها لعلها تنسيها البرّاق وتشفيها من داء حبه وغرامه فقد كانت مقتنعة فيما بينها وبين نفسها أن أمير اليمن لن يعدل أبداً عن ليلى فالرجال توّاقون إلى كل جديد فتقاعسُ لكيز عن تجهيز ليلى إلى الأمير من شأنه أن يزيد الأمير رغبةً في ليلى وحرصاً على الاستئثار بها. وكان كل أملها معقوداً على خوارق السماء وأعمال الجن والملائكة الذين يأتمرون بأوامر اللات ومناة والعزّى وينتهون بنواهيهم فلا عجب إذا عمدت إلى نذر النذور للآلهة ووعدها إياهم بالذبائح والعتائر إذا هم انتزعوا حب البرّاق من قلب ليلى أو إذا هم أوحوا إلى أمير اليمن بنفض يده من ليلى والعدول عنها إلى سواها من العرائس. ولا عجب إذا عمدت أمّ الأغرّ أيضاً في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى ما تعرف من رقى وتعاويذ.

استيقظت أمّ الأغرّ في صباح أحد الأيام مسرورة فرحة مفترّة الثغر بسّامة العينين وذكرت حلماً بهيجاً كان سبب فرحها وحبورها فقد رأت فيما يراه النائم أن البرّاق عاد إلى

الديار وتزوّج ليلى بعد معارك طاحنة خاض غمارها ورجع منها منصوراً ظافراً. وعبثاً حاولت أمّ الأغرّ أن تذكر هؤلاء الأعداء الذين قهرهم البرّاق ونكّل بهم فلم تسعفها الذاكرة فعدّت عن معرفتهم وما حفلت إلاّ بتلك العاقبة السعيدة التي رأتها في الحلم فسارعت إلى حبرتها واشتملت بها وركضت تخبر ليلى بذلك الحلم الجميل وتلتمس فيه الفأل الحسن. وما همّها أن يصحو إخوتها كليب ونويرة والمهلهل فلا يجدوها ولا يجدوا الطعام معدّاً يتبلّغون به عند الإفطار فإخبار ليلى بذلك الحلم يجبّ ما عداه من فروض وشؤون.

مضت أمّ الأغرّ لا تلوي على شيء وتريد أن تسابق الطير إلى ليلى فكانت تتعثّر وتنهض ولا يقفها ألم ولا وجع. ويبلغ بها اللهاث مبلغه فلا تخفّف السير ولا تمشي الهوينى. ويلعب نسيم الصباح بحبرتها وشعرها فلا تكترث له ولا تعنى بإصلاحهما حتّى إذا كادت تصل إلى الساحة التي كان البرّاق وأهله ضاربين فيها خيامهم تملكتها الدهشة فقد لاح لها عن بعد في تلك الساحة شبح يطوف بالأنقاض والدمن فوقفت وفركت عينيها لتتحقق من أنها غير حالمة فوثقت بما رأت وقالت : أتراه البرّاق قد عاد . إذن لقد صحّ حلمي . فضاعفت الخطى حتّى بلغت الساحة فالتفت الشبح على صوت خطاها

فإذا الطائف ليلى تحييها قائلة :

ــ « عمي صباحاً يا خالتاه . »

فجرت أمّ الأغرّ إلى ليلى تعانقها وتقبلها وتقول لها :

ــ « كنت ذاهبة إليك يا ليلى . » فقالت ليلى :

ــ « على الرحب والسعة يا خالتي ولكن ما الذي حملك على هذا البكور »

فقالت أمّ الأغرّ :

ــ « اجلسي يا ليلى أحدّثك . . . خبر سعيد . . . فأل عظيم . . . »

فأتت ليلى بحجرين ووضعت أحدهما على مقربة من الآخر فجلست أمّ الأغرّ على حجر وليلى على الآخر وأنشأت أمّ الأغر تقصّ على ليلى حلمها السعيد وتزوّقه بما شاءت من البهرج والزخرف وتدخل في روع ليلى أنه حلم ستحققه الأيام عن قريب فما كذّبت لها الأيام قط حلماً . فتبسمت ليلى ابتسامة حزينة قادرة في نفسها لخالتها تلك العاطفة الجميلة المشوبة بالسذاجة والاعتماد على الأحلام وقالت :

ــ « أضغاث أحلام يا خالتي . » فصاحت أمّ الأغر :

ــ « كلاّ وألف مرة كلاّ . إنها حقيقة واقعة . أتريدين أن تتثبّتي من صحتها . انظرى . »

وكانت الشمس قد بدأت تلوح في الأفق وتمزّق أشعتها كبد السحاب . وكانت الطيور قد أخذت على دفء الشمس تنفر من أعشاشها فوقع نظر أمّ الأغرّ على طائر استوى على غصن شجرة فتناولت حصاة وزجرته بها ليطير عن الغصن فصفّق بجناحيه وسنح يميناً فكاد يغمى على أمّ الأغرّ من شدة الفرح فاستجمعت قواها وكادت تطير هي طرباً والتفتت إلى ليلى تقول وهي ترقص :

— « أرأيت يا ليلى . إنه طائر سانح أرانا ميامنه ولم يرنا مياسره فاستبشري خيراً وارقدي على هذا الفأل الحسن حتّى يتحقق . »

ولقد رأت ليلى في سنوح الطائر مجلبة للاستبشار وإن تكن على غير عادات قومها لا تحتفل بمثل تلك المظاهر ولا تعيرها ما يعيرونه إياها من خطر وجلالة . وكانت تعلم أن دون عودة البرّاق إليها خرط القتادحتّى لو عدل أمير اليمن عن الزواج بها فقد نزح البرّاق عن دياره مجروح العزّة ولكنه انطوى على جراحه كرماً ونبلاً فلو قيل له بعد اليوم هذه ليلاك يا برّاق عد إليها واقبلها عروساً لك لمنعه الإباء والأنفة عن أن يلبي النداء فلم يبق إلا أن تدعو له ولنفسها بالسلوان . . .

لم تشأ أمّ الأغرّ أن تنتزع ليلى من تفكيرها فلما أطالت

التأمل والتدبر أهابت بها صارخة :

ــ « أهناك مجال أيضاً للتفكير يا ليلى . »

فحدّثتها ليلى بما يساورها من مخاوف وما إن ذكرت لها أنها تدعو له ولنفسها بالسلوان حتى هبّت أمّ الأغرّ واقفة وأمسكت ليلى من يدها وقالت لها :

ــ « تعالي معي فعندي دواؤك . »

ومشت بها راجعة إلى ديارها سالكة بها درباً ملتوياً خشية أن تلتقي في طريقها بأخيها كليب أو أحد من أخوتها الآخرين حتى انتهت بها إلى بقعة نائية فجلست إلى الأرض وأجلست ليلى إلى جانبها وقالت لها :

ــ « انظري ها هنا . »

فأمعنت ليلى النظر حيث أشارت خالتها فرأت بعض أعواد من الشجر قد غرست في الأرض على شكل دائرة ورأت خالتها تجتثّ تلك الأعواد من مغارسها فقالت لها :

ــ « ما هذا يا خالتي ولماذا تنزعين هذه الأعواد . »

فقالت أمّ الأغرّ :

ــ « إنها العلامة التي وضعتها لأعرف مقرّ الخرزة الدفينة . »

وشرعت أمّ الأغرّ بعد أن انتزعت الأعواد تحفر بيديها وتجلو عن الحفرة التراب حتى عثرت على ما تبتغي فحدّقت

فيه وأشرق وجهها وقالت وهي تري ليلى الخرزة التي استخرجتها من التراب :

— «ها هي ذي . لقد اسودّ لونها فلا يبقى إلا أن نسحقها ونصبّ عليها ماء المطر . » فقالت ليلى . . :

— « وفيمَ كل هذا . » فصاحت أمّ الأغرّ مدهوشة :

— « ألم تحدّثيني عن رغبتك في السلوان . إني امرأة أستبق الحوادث فقد قدّرت هذا وأخذت هذه الخرزة الشفافة واسمها " السلوانة " وطمرتها في التراب فإذا اسودّ لونها وقد اسودّ وسحقت وصبّ عليها ماء المطر نجم عن هذا كله شراب السّلوان يشربه المبتلى بحب إنسان فيسلو من يحبّ ويشفى من داء الغرام . » فصاحت ليلى مذعورة خائفة :

— « لا . لا . لا أريد أن أشرب من ماء السّلوان . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتظنينني أكرهك عليه. سمعتك تتمنّين السّلوان فأعددت لك عدّته. أمّا وقد سلوت عن السّلوان وهكذا العشّاق الأوفياء فلتحمل الجن هذه " السلوانة " اللعينة . »

وأتبعت القول بالعمل وقذفت الخرزة بكل ما تستطيع من قوة في الفضاء الواسع ثم مالت على ليلى وهي تقول :

— « إنك لعلى صواب يا بنيتي فما شأننا نحن والسّلوان في

حين أن الحلم الذي حلمت به يؤكد لي رجوع البرّاق وزفافك إليه . » فقالت ليلى :

ـ « أما زلت يا خالتي تؤمنين بالأحلام وتحسبينها حقائق الحياة . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « عجباً لك يا ليلى أتشكّين في الأحلام. وفي الأحلام التي أراها أنا في منامي . ألم أخبرك أنها ما كذبتني قط . »

فابتسمت ليلى ولم تجب فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « هيّا بنا إلى العرّاف فلعلك تصدّقينه إذا كنت لا تصدّقيني . » فقالت ليلى :

ـ « رحماك يا خالتي فما شأن العرّاف وخفايا القلوب وما شأن العرّاف ومعرفة الغيب الذي لا يعرفه إلا الله . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « إنما العرّاف ينطق بلسان اللات والعزّى . هيا بنا إليه ولا تزيدي . »

فطاوعت ليلى خالتها مستسلمة ومشت وإياها في منعرجات ودروب حتى إذا طال بهما السير وبدأت أمّ الأغرّ تشعر بالتعب والكلال التفتت إلى ليلى وقالت :

ـ « مكان العراف لا يزال بعيداً على أنني أعرف في هذه الناحية عرّافة على جانب كبير من الحذق والدراية فما قولك

لو انتهينا إليها فإني ما قصدتها قط إلا كشفت لي حجب الغيب وأسراره . » فقالت ليلى متبسمة :

— « أنا رهن إشارتك يا خالتاه فافعلي ما بدا لك. »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « ولاسيا أن النساء هن أحفظُ للسرّ . »

وبعد دقائق معدودات وصلت أمّ الأغرّ وليلى إلى خباء حقير جلست عند بابه عجوز شمطاء وامتدت أمامها رقعة مملوءة بالرمل متناثر فيها الحصى فحيّتها الزائرتان فردّت على التحية بصوت غائر في بطون السنين التي تحملها في شعرها الأبيض ووجهها المتجعّد وعروق أناملها البارزة وقالت للزائرتين دون أن ترفع إليهما النظر :

— « اجلسا غير مأمورتين . »

جلست أمّ الأغرّ على عقدة من جذع نخلة وجلست ليلى على مقعد صغير مصنوع من أعواد الشجر كانا بجوار العجوز وافتتحت أمّ الأغرّ الكلام قائلة :

— « جئناك يا خالة لتكشفي لنا عما يخبئه الغيب لابنة أختي من أسرار . اكشفيها لنا على علاتها ولا تخفي عنا شيئاً مما ترين . »

فقالت العجوز :

— « تعودت الصدق والصراحة ولن أحيد عما تعوّدت .

اقتربي مني يا فتاتي وابسطي لي كفك اليمنى . »

فبسطت ليلى كفها اليمنى فأمسكت بها العجوز وأخذت تتفرّس فيها ملياً وتقرأ خطوطها وتجسّ بأصبعها المرتجفة بعض الأنامل والجوانب من كف ليلى البضّة الجميلة . ثم تركت العجوز كف ليلى وهي تهز رأسها وانثنت إلى رقعة الرمل أمامها ورفعت منها الحصى وأمرّت كفها على وجه الرمل فصقلته وشرعت تخطّ فيه خطوطاً متوازية فمتعاكسة ثم تمسح براحة يدها ماخطّت وتعيد الكرّة على أشكال متغايرة . وبقيت على هذه الحال ساعة من الزمن لا تنطق بحرف ولا ترفع عينيها عن رقعة الرمل ولا تفكّ تقطيب حاجبيها حتى ارتاحت إلى شكل من أشكال الخطوط فإذا هي تؤلّف مربّعات في جانب وحلقات في جانب آخر . ثم تناولت عدداً من الحصى ووزّعته على بعض تلك المربعات والحلقات وأسندت رأسها إلى كفها اليسرى وأطالت التحديق في الرمل والحصى والأشكال التي رسمتها بإصبعها وعمدت إلى بعض الحصى فنقلته من موضع إلى موضع . ولما فرغت من عملها رفعت رأسها وحدجت ليلى بنظراتها طويلاً وقالت :

— « أبشري يا فتاتي . . . »

فأطلقت أمّ الأغرّ من صدرها تنهّدة عميقة بعد إذ كانت طول الوقت كاتمة أنفاسها تنتظر أن تنفرج

شفتا العجوز عن الخبر البهيج المفرح . أما ليلى فكانت في عالم آخر من الأوهام والأحلام فأيقظتها كلمات العجوز من غيبوبتها فتبسّمت شاكّة مرتابة . وتابعت العجوز كلامها فقالت :

ـــ « ستنالين ما تحلمين به . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـــ « بوركت من عرّافة . . . هاتي . . . هاتي . . . هاتي أسرار الغيب المفرحة . »

فقالت العجوز :

ـــ « ولكن دون تحقيق أحلامك عواصف وزوابع . » فقطّبت أمّ الأغرّ حاجبيها ثم أبرقت أساريرها ومالت على ليلى توشوشها قائلة :

ـــ « ألم أقل لك إنه سيخوض المعارك ويعود منها ظافراً منصوراً . » فهزّت ليلى رأسها ومضت العجوز في كلامها فقالت :

ـــ « هناك حبيب تحبّينه ويحبّك. وهناك رجل يرغب فيك ولا ترغبين فيه . وهناك غير واحد يتمناك ويهوى وصالك . ولكن سيتغلب الحبيب إذا بقي على هواك وسيخيب الراغب فيك ويتنحّى عنك لمن هو أقوى منه فلا بدّ من الاعتماد على الرُّقى لتضمني النصر وتفوزي بالمراد . » فصاحت أمّ الأغرّ :

— « هاتي من رُقاك يا خالة ولتكن قوية كالجبال عاصفة كالزوابع مرهفة كمواضي السيوف . »

فأحنت العجوز رأسها علامة الاستجابة وطلبت من ليلى أن تمدّ كفها اليمنى فمدّتها فتناولتها العجوز بيمناها وأطبقت عليها بيسراها وقالت :

— « لنبدأ بالعدوّ المريب . ردّدي معي هذه الرقية :

"أخذْتهُ بالفَطْسَة . بالثُّوَبا والعَطْسَة . فلا يزل في تَعْسَة . من أمره ونكْسَة . حتى يزور رَمْسَه ." »

فردّدت ليلى ما سمعت كلمةً كلمة ثم استأنفت العجوز كلامها وقالت :

— « ولنثنِّ بالعروس الحبيب . ردّدي معي هذه الرقية فمن شأنها أن تسدل الأستار والحجب بينه وبين كل امرأة سواك فيعيش ويموت على حبك وهواك . قولي معي :

" هوّابةٌ هَوّابة . البرق والسحابة . أخذْتهُ بمرْكن . فحبّه تمكّن . أخذْتهُ بإبرة . فلا يزل في عَبرَة . جلبته بإشفى . فقلبه لا يهدا . جلبتُهُ بمبرَد . فقلبه لا يبرُد . " »

فأعادت ليلى هذه الرقية لفظاً لفظاً وحرفاً حرفاً وقلبها يخفق بالأمل والاستبشار مكّنتهما فيه الرقى والطلاسم على غير إيمان بها ولا يقين . . .

٦

واستمرت الأيام في جريانها فلا أمير اليمن استعجل لكيزاً في إيفاد ليلى إليه ولا البرّاق توالت على القبيلة أخباره . فإن سرّت ليلى بسكوت الأمير فنمت في فؤادها غراس الأمل فقد كانت على اضطراب وقلق من انقطاع أخبار البرّاق وإغفال الركبان نقل الأنباء عن مضطرَبه وأحواله .

وإنها لجالسة إلى أبيها لكيز في عصر يوم من الأيام ينتظران أوبة أخوتها من المراعي إذ أقبل الأخوة في قلقٍ بادٍ ومشغلة ظاهرة فقال كبيرهم بعد أن حيّا وجلس :

ـ « لقد وقعت الواقعة يا أبي . » فقال لكيز :

ـ « خلاك ذمّ ياولدي فأي واقعة تعني . » فقال الابن الأكبر :

ـ « الفتنة بين ضبيعة وسدوس . » فقال لكيز :

ـ « ومن أصلى أوارها . » فقال الابن الأوسط :

ـ « الحارث بن عباد فقد قتل الفضيل بن عمران . » فقالت ليلى :

ـ « ولماذا قتله وفيمَ قتله . » فقال أخوها الأصغر :

— « انتهى إلينا أن الحارث بن عباد كان يرقب قنصاً له على الماء ليرميه بالسهم فجاء الفضيل بن عمران وارداً فقال الحارث : " أمسك عليك يا فضيل ولا تفزع قنصي حتى أرميه بالسهم . " فأفزع الفضيل القنص فقال الحارث : " بالله لا أخطئ سهمي فيك. " فرماه الحارث بالسهم فكان سببه . »

وبينا كان لكيز وأبناؤه يتداولون ويتشاورون في ذلك الحادث ويقدّرون له العواقب وينظرون في كيف يحسم الشرّ وتستأصل الفتنة دخل عليهم كليب وأخواه نويرة والمهلهل فحيّوا وجلسوا وقال كليب :

— « يا سيد العشيرة جئناك نأتمر بأمرك فإن قلت لنا : اجنحوا إلى السلم جنحنا لها وإن قلت شمرّوا للحرب شمرّنا وخضنا عجاجها بسواعد قوية وقلوب لا تهاب العدى ولا ترهب الموت . » فقال لكيز :

— « أفي وقعة ضبيعة وسدوس تحدّثني فقد علمت أمرها الساعة . » فقال كليب :

— « أجل يا لكيز . » فقال لكيز :

— « ما أراها بالأمر الجلل . تتحمّل ضبيعة دية القتيل فإن اشتطّت سدوس في الطلب ساعدنا سدوس على الدية وقضينا

على الشرّ والفتنة . » فقال نويرة أخو كليب :

— « لقد صرّح عمران بن نبيه أبو الفضيل القتيل أنه لا يرضى بالدية ولا يرضى بالحارث بن عباد يسلم إليه فيقتله بولده وإنما هو يطلب رأس أخي كليب أو رأس البرّاق ولا يرى غيرهما كفؤاً لولده حتى إن سدوساً تناقلت شعره الذي يقول فيه :

بالله ما الثأر في حارٍ ووالده ولا أخيه ولكن في ابن ر وحان

أعني الفتى السيّد البرّاق سيّدهم وفي كليب وذاك السيّد الثاني

والله لا رضيت نفسي ولا قنعت حتى أرى الخيل تسعى في الدم القاني »

فقالت ليلى ثائرة غضبى :

— « وأين البرّاق منا ليقتله بولده فلو كان فينا لألقمه السيف وحشا فمه بالتراب . أمّا وقد شحطت به الدار وشطّ المزار فرجاؤنا معقود على كليب الفارس المغوار فهو كفيل أن يقود جموعنا إلى النصر والظفر . ولست أرى الدية ولا المهادنة كابحة من عمران بن نبيه جماحاً . . . » فقال كليب :

— « الرأي ما رأت ليلى فما لنا غير الحرب من جواب فعمران لا يفتأ يكرر القول بأنه لا يرضى بولده غير البرّاق وغيري فقد قال ما سمعتم من أخي نويرة وقال أيضاً بعد ذلك :

لعمرك ما ثاري إذن في حويرثٍ ولكن ثأري في كليب بن وائل

وإلا الفتى البرّاق فارس قومه ... فذاك نظير الفضل عند الخصائل
أأقتل ضبعاً من ضباع بضيغم ... سلالة أبطال كميّ حلاحل
سأسعر في أبنا ربيعة غارةً ... بكل رديني من السمر عاسل»

فقال كبير أبناء لكيز :

ــ «إنه يعرّض بنا ويتحدّانا فلا مناص من أن نهرع إلى سيوفنا لنردّ على دعواه الصاع صاعين وأنت يا كليب فارسنا بعد البرّاق فانهض إليها ننهض معك مكافحين مستبسلين .» فقال لكيز :

ــ «وبماذا أجاب الحارث بن عباد عن ذلك الشعر الذي يزري به ويعدّه من سقط المتاع .» فقال نويرة أخو كليب :

ــ «أجابه بكلام طويل فيه عزة وفيه إباء وفيه زهو وفخار بالبرّاق وكليب فقد ختم شعره قائلاً :

وأنت إلى البرّاق بالقول مسرع ... فويحك من برّاق يوم التنازل
سيشهدها البرّاق وشكاً بقومه ... ويشهدها أيضاً كليب بن وائل»

فقالت ليلى :

ــ «ما أراه إلا استجار بالبراق وكليب فكأنه بهذا الشعر قد عقد طرف ثوبه إلى طنب بيت كليب أو بيت البرّاق ولا معدّى لهما عن إجارته .» فقال لكيز :

— « على رِسلك يا ليلى . وعلى رسلكم يا أبنائي جميعاً . لئن نحن نصرنا ضبيعة وهي بطن منا لتنفرنّ طي إلى نصرة سدوس فهي بطن منها بل لتنفرنّ قضاعة أيضاً ولنكوننّ قد أذكيناها حرباً ضروساً . »

فقال كليب :

— « البادي أظلم يا سيّد العشيرة . »

وقبل أن يفتح لكيز فمه ليردّ على كليب دخلت أمّ الأغرّ على القوم وهي تلهث وقالت :

— « البدار . البدار . ألّبت قضاعة وطي وسدوس الجموع فقد علمتُ الساعة ممن لا أشكّ في صدق روايته أنهم يشمّرون للفتنة ويأخذون في إضمار الخيل وصقل السيوف وتقويم الرماح ونفض الدروع فإن لم تشمرّوا لها أخذنا على غرّة . . . » فقال لكيز :

— « أواثقة أنت يا أمّ الأغرّ بنهوض طي معهم فبيننا وبين نصير بن لهيم زعيم الطائيين نسب ما إخاله يفصم عراه بله أنه خال البرّاق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « كل الوثوق فقد روى لي الراوي أن نصير بن لهيم قد استفزّ إلى الروع استفزازاً بمكيدة من مكايد النساء تنقصه وتضع من شرفه ونسبت فيها فعلة السوء إلى أخي المهلهل . » فقال هذا مدهوشاً :

ـ « وما تلك يا أختاه . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « حدّثني المخبر الصدوق أن جماعة من نساء طي ممن أوغر الحسد والحقد صدورهن على البرّاق وليلى لإعراض البرّاق عنهن ولتطلّع أمير اليمن إلى ليلى ... » فقاطعتها ليلى قائلة :

ـ « إني لأنزل لهن عن أمير اليمن راضية مختارة . » فقالت أمّ الأغرّ :

ـ « شدّت أولئك النساء لِقَيْنَةٍ من قيان نصير بن لهيم على جمل وقلن لها إذا بلغت خباء نصيرٍ وكنت بحيث يسمعك فاصرخي ونادي بالويل والثبور فيخرج إليك فقولي له : ركبت لزيارة أملك مولاتي فلقيني المهلهل بن ربيعة واستنزلني من جملي ونال مني وطره وقال لي ليست قيان نصير ولا نساء طي بمحرّمات علينا . ففعلت القينة بما أوصيت به فحنق نصير حنقاً شديداً وقال : وحق مناة لأردّنّ كيد ربيعة في نحورها ولأغيرنّ عليها وأسبين حريمها وأفضحنّها أشد الفضيحة بعد سيّدها البراق . » فقال لكيز :

ـ « لسنا وأيم الحق من جُناتها ولكن لنا شرفاً نذود عنه وحرمة نصونها فاذهبوا يا أبنائي وتفرقوا في القبائل واستصرخوا ربيعة وضبيعة وبكراً وتغلب وبني جشم وبني أسد وكلهم مشهور بالشجاعة والنجدة . وأنت يا كليب صاحب اللواء في غيبة

البرّاق أعقده لك فسرْ به إلى النصر المبين وأنا وأبنائي من حولك نشدّ أزرك ونحيطك بالسواعد القوية والسيوف القواطع . »

وتفرّق المجتمعون وذهبوا يعدّون للحرب عدّتها .

واستُصرخت قبائل ربيعة وبطونها فلم يلب النداء منها غير نفر قليل لانصراف القوم عن لكيز بعد موقفه من البرّاق ولنزوح البراق عن ربيعة وقد كان فارسها المغوار ومناط رجائها فاضطر كليب هو وأخوته ولكيز وأبناؤه وبمن اجتمع لهم من فرسان ضبيعة وبكر وتغلب أن يتلقوا الغارات ويذودوا عن الحياض والذمار .

استعدّ الفرسان ليوم الكريهة والطعان واستعدّت معهم النساء وفي طليعتهن أمّ الأغرّ وليلى يحملن أداوَى الماء وصرر الأواسي من لفائف وجبائر سيحتجن إليها في أسْو الجراح وشدّ العظام والحيلولة دون نزف الدم .

ولم يطل انتظار فرسان ربيعة ومن معهم فقد حمل عليهم فرسان قضاعة وطي وسدوس والتقوا بهم في وادي « متون » واقتتلوا قتالاً شديداً إلى غروب الشمس فتطاردت الخيول وتحاجزت الفرسان وتعانقت الظبي واشتجرت السيوف وتطايرت السهام وأسفرت المعركة عن قتل عباد أبي الحارث وقتل أخوته التسعة وخلق كثير من ربيعة . ولقد أبلى كليب وأخوته ولكيز

وأبناؤه البلاء الحسن غير أن الكفّتين لم تكونا متكافئتين فآب المهاجمون وعلى رأسهم نصير بن لهيم الطائي ظافرين منتصرين يجرّون وراءهم المغانم والأسلاب والسبايا وكانت ليلى وأمّ الأغرّ في السبايا .

وأمر زعيم طي أن تحاط أخت كليب وابنة لكيز بالرعاية والتجلة وبأن يضرب لهما خباء خاص فما انقطعت أمّ الأغرّ طول الليل عن الشكوى والتذمرّ تندب سوء الطالع الذي جعلها هي وليلى من سبايا الطائيين وتبدي شديد الأسف على أن المعركة لم تجر كما وجب أن تجري عليه فلو لم يشغل كليب وأخوته بقتال بني قضاعة لأنقذنا من أيدي الطائيين . ولو شدّ لكيز وأبناؤه على نصير وأعوانه لما وقعنا في الأسر. ولو. . . فقاطعتها ليلى قائلة :

— « ليس هناك إلا " لو " واحدة يا خالتي . فلو كان البراق على رأس فرسانا لجنّبنا السّبي ولتغير وجه القتال فمهما يكن من بأس خالي كليب وشجاعة أعوانه فإنهم كلهم لا يعدلون البرّاق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « وماذا يفعل فارس واحد ولو كان البرّاق في هذه الجموع المحتشدة التي تفوقنا عدداً . أحسبت البرّاق يعدل جيشاً برمّته . » فقالت ليلى :

«أمّ الأغرّ دعي ملامك واسمعي قولاً يقيناً لست عنه بمَعزلِ
برّاق سيّدنا وفارس خيلنـــا وهو المطاعن في مضيق الجحفلِ
وعماد هذا الحيّ في مكروهه ومؤمَّلٌ يرجوه كلُّ مؤمَّلِ»

فقالت أمّ الأغرّ :

ـ «أجل يا حبيبتي ولكن لا تنكري شجاعة خالك كليب.»

فقالت ليلى :

ـ «معاذ العلى والمجد . ولكن أصيخي إليّ أحدّثك عن البرّاق : إنه ليضرب بسيفه الثور الهائج فيقدّه شطرين . وإنه ليسدّد السهم إلى إحدى عيني الغزال فيبيّته فيها فهو أمهر رماة الحَدَق. وإنه ليعلّق الضبّ في غصن شجرة ويرمي فقراته بالنبال فيصيبها فقرة فقرة. وإنه ليكرّ على الكوكبة من الفرسان الأشدّاء فيطيح برؤوسهم واحداً واحداً . . .» فضحكت أمّ الأغرّ وقالت :

ـ «وإنه ليلتقي بالجيش اللُّهام فينفخ فيه فيطير . . . ويحي ما أغباني. لقد نسيت أن ليلى هي المتحدثة عن البرّاق . . . يا للحب وسلطانه . . .»

فابتهجت ليلى من كلام خالتها ثم غابهما الإعياء والنعاس على أمرهما فنامتا .

لم يكن رأي ليلى في البرّاق مقصوراً عليها فقد كان

كذلك رأي كايب فيه فإنه لما رجع إلى نفسه وتبيّن وقع الهزيمة التي مُني بها بنو ربيعة حنّ إلى البرّاق وعرف أنه ما من بطل سواه حقيق أن يستردّ شرف القبيلة ويمحو عنها الذلة والعار . فأفضى برأيه إلى بعض خلصائه فأمّنوا عليه فركب فيهم وطاروا بأفراسهم طيران الصقور إلى البحرين حتّى نزلوا على بني حنيفة فاستقبلهم البرّاق ورحّب بهم وأكرم وفادتهم . وهال كليباً أن يرى البرّاق على غير ما عهده فيه من زهو وإشراق ومرح ونضارة فعلم أن حبّ ليلى لا يزال يعصف بقلبه ويورده موارد الألم والعذاب.

وقصّ كليب على البرّاق جليّة المعركة وما اكتنفها من حوادث وما نتجت عنه من هزيمة منكرة لبني ربيعة وأنهى إليه أنهم إنما جاءوا مستنجدين به وأنشده :

«إليك أتينا مستجيرين للنصرِ فشمّر وبادر للقتال أبا نصرِ
وما الناس إلا تابعون لواحدٍ إذا كان فيه آلة المجد والفخر
فنادِ تجبك الصيد من آل وائلٍ وليس لكم يا آل وائل من عذر»

فتبسّم البرّاق ابتسامة حزينة وذكر ما لقي من لكيز عمّه من صفعة لا يزال يترنح من هولها فأنشد كليباً متهكماً :

«وهل أنا إلا واحد من ربيعة أعزُّ إذا عزّوا وفخرهم فخري
سأمنحكم مني الذي تعرفونه أشمّر عن ساقي وأعلو على مهري

وأدعو بني عمّي جميعاً وأخوتي إلى موطن الهيجاء أو مرتع الكرّ»

وردّهم يتعثّرون بأذيال الخيبة. وكان كليب قد آثر في بدء الحديث أن يكتم عنه نبأ سبي ليلى حتى لا يزيد في آلامه وقال في نفسه سيعرف الخبر إذا وصل إلى الديار فيلتهب حميةً وحماسة وكاد وهو منصرف يقذفه بالنبأ الأليم ولكنه أمسك فقد كان يرجو أن يهبّ البرّاق إلى نصرة قومه مستبسلاً فدى القبيلة لا بسبيل امرأة وإن كانت ليلى فطوى النبأ في صدره وعاد إلى قومه في الجزيرة كئيباً حزيناً.

وانتشر نبأ سفارة كليب إلى البرّاق في أنحاء الجزيرة وعودته خائباً فشاء بنو طي أن ينتهزوها فرصة يوغرون فيها صدر البرّاق ويكسبونه إلى صفوفهم فأرسلوا إليه يعدونه بالكرامة والسيادة فيهم إن آزرهم على قتال ربيعة. وزاد خاله نصير بن لهيم فذكّره بما أصاب من هوان على يد لكيز ومنّاه بتزويجه ابنته إن شدّ الرحال إليه وانضمّ إلى طي وامتنع عن نصرة ربيعة. وكان فيما أرسله إليه قوله:

«ألا أبلغ البرّاق مني نصيحة فإنّا إليكم أجمعين نسيرُ
فهل لك تأتينا سريعاً مسلّماً فإني لكم ذو نصرة وظهير
قبائل طيٍّ كلها قد تجمعت وأحلافها جاءت لهن تغير
ألم تذكروا ماذا جناه لكيزكم وأعرض عنكم والكلام كثير

هلمّ إلينا كي أزوّجك ابنتي لها شرف في طيّها وظهير
ودع عنك إهمالاً هناك فإنه أقاطيع أرحام وأنت نصير »

فلما بلغت الأبيات إلى البرّاق ردّدها على مسمع أبيه وسأله قائلاً :

— « أجب عن هذه الأبيات يا أبي . » فقال أبوه :

— « إنما هي موجهة إليك فعليك الجواب . » فأنشأ البرّاق يقول مجيباً لخاله :

«لعمري لست أترك آل قومي وأرحل عن فنائي أو أسيرُ
ولي بهم إذا ما كنت فيهم على رغم العدى شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسرٌ وأرحل إن ألمّ بهم عسير
ألم تسمع أسنّتهم لها في تراقيكم وأضلعكم صرير
فكُفّ الكفّ عن قومي وذَرْهُم فسوف يرى فعالهمُ الضرير»

فأبرقت أسارير أبيه الشيخ لمّا سمعه ينشد هذه الأبيات متوعّداً فيها آل طي وقد كان يخشى أن ينضمّ إليهم انتقاماً لنفسه من لكيز فنهض إليه وقبّل رأسه وأمر بمهرته « السبوق » فوهبها للبرّاق وكانت من أفره الخيول وأسبقها فأبوها « حافل » من خيل قضاعة وأمّها « عبرضة » من خيل بني شيبان فصاح البرّاق في رهطه من بني أسد وبني حنيفة فتوافدوا عليه وأرسل

أباه وإخوته إلى أحياء ربيعة يستصرخون قبائلها فجزعت ربيعة لجزع البراق وأخذت أهبتها للحرب وكان البرّاق قد علم بسبي ليلى فمشى إلى الجزيرة وهو ينشد:

«لأفرجنّ اليوم كل الغـــمم   من سبيهم في الليل بيض الحرَم
صبراً إلى ما ينظرون مقــدمي   إني أنا البرّاق فوق الأدهمِ
لأرجعنّ اليوم ذات المبسمِ   الواضح المنضّد المنظمِ
بنت لكَيزَ الوائليّ الأرقم

وخاض البرّاق وقومه غمرات القتال وأمّر كلاً من أخوته وكلاً من كليب وإخوته على كتيبة وكانت أول موقعة له مع أعدائه في « دومة » على حدود بلاد أنمار فانتصر فيها انتصاراً عظيماً وما زال ينتقل من نصر إلى نصر ويلحق بأعدائه الهزيمة تلو الهزيمة حتى استسلموا وامتلأت أيديه من الغنائم ففكّ الأسرى واسترجع الظعائن وكانت فيهن ليلى وأمّ الأغرّ. ودحر الطائيين حتى جبلي « أجأ » و « سلمى » وتقهقر بنو قضاعة حتى مشارق جبل « رضوى » .

ثم أصلح ذات البين في القبائل فتصافت وتآخت وأقرّت له بالمكانة الأثيرة والشرف الأثيل وسوّدته عليها زعيم الزعماء وفارس الفرسان . . .

٧

ورد في هذه الأثناء على لكيز رسول من عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن يستنجزه وعده في تجهيز ابنته ليلى إليه فانقطع الخيط الرفيع من الأمل الذي كانت ليلى تشبّثت به بعد تلك الحوادث الجسام . على أن ذلك الأمل والحق يقال كانت ليلى قد قطعته هي نفسها قبل أن يفد على أبيها الرسول فلعلها في قرارة نفسها قد ارتاحت إلى قيام أمير اليمن باستعجال أبيها واستنجازه الوعد بل لعلها سرّت بذلك الصنيع ورأت فيه ما يحفظ لها العزة والكرامة ويرضي أنوثتها ويبقيها في العذارى اللواتي تطمح إليهن قلوب الرجال .

انتصر البراق انتصاره الباهر وعقدت له الرياسة في قومه وحُفّ بالفخر والمجد والشرف ورأى رؤساء العشائر أنه قد أصبح كفؤاً لأمير اليمن فلا غضاضة على لكيز في منحه يد ليلى ولا سيا أن أمير اليمن قد انصرف عنها لا محالة فسكوته أشهراً طوالاً دليل على ذلك .

استعرضت ليلى في ذهنها هذه الحال وهي جالسة وحدها في الخباء تفكر وتنعم الروّية فذكرت وفود رؤساء العشائر على

أبيها بالأمس وإلحاحهم عليه في تزويجها يالبرّاق وانتفضت من رأسها إلى أخمص قدميها لمّا ذكرت أن السبب الأول الذي قدّموه بين يديه هو سكوت أمير اليمن بحيث يحملهم على الظن بل على اليقين أنه عدل عنها وولى وجهه شطر غيرها من العذارى. ويح هؤلاء الأغرار. أحسبوها من سقط المتاع أم حسبوها لا حسّ ولا رأي لها ولا عزة ولا شمم. يخطبها إلى أبيها الخاطب من الرجال فيجاب إلى طلبه ويقصي عنها ابن عمها حبيبها وخطيبها الأول فيهجر الديار يأساً وغمًّا. ثم تنزع بالخاطب الجديد النوازع فينصرف عنها فينادى على خطيبها الأول ويقال له هذه عروسك عد إليها وخذها إليك فقد أعرض عنها خطيبها الجديد الذي كنا قد آثرناه عليك وارتمينا عند قدميه وبهرنا بمجده وكنوزه. أمّا لو أن البرّاق رضي بها عروساً بعد ذلك لعفّت عنه وطرحت بحبه في الأودية السحيقة ولبدا في عينيها حقيراً على مجده ذليلاً على عزّه وشرفه. ولكنها تربأ بالبرّاق أن يهوي إلى هذا الدرك فهي تعرفه أبيًّا متصوّناً مترفعاً ولا أدلّ على كرم خلقه من أنه هجر الديار عزيزاً كريماً وعاد إليها متحاملاً على نفسه ليدفع عنها المذلة والعار وليقنو لها بجدّ سيفه وشجاعة قلبه العزة والفخار. فرؤساء العشائر قالوا لأبيها بالأمس إنهم متطوّعون بهذه السفارة على غير علم من البرّاق وإنما أرادوا

أوّلاً أن يظفروا من أبيها بالرضى ليتحوّلوا بسفارتهم إلى البرّاق .

وهي . أليس لها رأي يسمع . أما كفاها أنها صانت كرامة أبيها مرّة . أتظل في كل مرة غصن آس ينقّل من إناء إلى إناء . من أوهم هؤلاء السفراء أن ليلى جبّة من الحرير يلبسها كل لابس . من أدخل في روعهم أني أقبل البرّاق عروساً لأن أمير اليمن طوى كشحه عني فأعرض وانصرف . لقد ألهمت السماء والدي وإن كان لا يعرفها إلا بالأوثان والأصنام أن لا يقطع للسّفراء بوعد جازم حتّى يتملى من الأمر ويتدبّره وها هي ذي رسالة أمير اليمن تحسم الأمر وتقطع الأقاويل .

ساورت ليلى مثل هذه الهواجس وهي تنتظر أباها وأخوتها وانتهت إلى أن رسالة أمير اليمن هي وحي من الله قد جاء يصون عليها عزّتها ويحفظ لها كرامتها فلا بدّ من الاستعداد للرحيل وإعداد النفس لقبول الحياة الجديدة التي ستحياها ولها من حب البرّاق في ضلوعها ينبوع تنهل منه وترتوي في صحراء الحياة .

ورمت ليلى عرضاً بنظرها إلى باب الخباء فرأت أباها وأخوتها قادمين وكانوا قد تلاقوا عند ساحة الخباء فأخوتها عائدون من المرعى وأبوها راجع من لدن البرّاق فحيّاها وقال :

— « ذهبت يا ليلى إلى ابن أخي البرّاق لأطلعه أوّلاً

على ما دار بيني وبين رؤساء العشائر فعلمت منه أنهم كانوا متطوعين في السفارة كما قالوا . . . »

فخفق صدر ليلى لما أيقنت أن البرّاق على ما عهدته فيه من العزّة وسموّ النفس ثم استمعت لأبيها يتمم حديثه ويقول :

ــ « ولأنهي إليه ثانياً بالرسالة التي حملها إليّ رسول أمير اليمن يستنجزني فيها وعدي بالرحيل بك إليه . » فسألته ليلى :

ــ « وكيف تلقّى هذا الخبر . » فقال لكيز :

ــ « كان على علم به فأطرق قليلاً ثم دعا لك بالهناءة والسعادة . ولما أعربت له عن أمنيتي بأن نحتفل قريباً بزواجه من عروس تحبه ويحبها وتوفرّ له أسباب النعيم قال لي : لقد عزمت على أن أحيا عَزَباً ما حييت تشغلني البيض والسمر من السيوف والرماح عن البيض والسمر من مهى الإنس والغزلان ... »

فغام وجه ليلى عند سماعها هذا الكلام ولم تدر أتبتهج ببقاء حبيبها على عهدها أم ترثي له وتبتئس ومضى أبوها يقول :

ــ « ولأروي له ثالثاً كيف أغلظ رؤساء العشائر لي القول عندما أبلغتهم رسالة أمير اليمن وعزمي على تحقيقها وإنفاذك إليه . » فقال ابنه الأكبر :

ــ « أوَغاب عنهم أن وراءك ثلاثة سيوف كفيلة بأن تغسل الإهانة بالدم المراق . » فقال لكيز :

ــ « لا يا بنيّ فما وصل غلظ كلامهم إلى حد الإهانة وإني لأتجاوز عن عنفهم وتقريعهم لما أعرفه فيهم من شرف القصد وحبّ للبرّاق ولكنهم غفلوا عن أن مصاهرة أمير اليمن ستدرّ أخلاف الخير على القبيلة مهما بلغت من عزة وجاه في سلطان البرّاق وحماه . وكيفما كان الأمر فقد استاء البرّاق من تهوّرهم وحلف ليصحبنّي وليلى إلى تخوم الديار يوم رحيلنا وليشملنكم برعايته وحمايته في أثناء غيابي . » فقالت ليلى :

ــ « وهل قبلت يا أبي أن يصحبنا إلى التخوم . » فقال لكيز :

ــ « ولمَ لا أقبل يا بنيّتي أوَليس البرّاق ابن أخي وابن عمك وسيد العشيرة وحامي ذمارها . فصحبته إيانا تقطع ألسنة السوء فلا تفتري علينا ولا تتقوّل الأكاذيب . »

والحق أن ليلى قد سرّها قرار البرّاق بمرافقة ركبها إلى حدود الديار في ذلك المظهر من النجدة والتجلة كبتٌ لحواسدها وإعلاء لشأنها وعنوان على أنها لا تزال العروس المنشودة يودّعها حبيب ليستقبلها خطيب . وفوق هذا كله ستتمكن من وداع البرّاق ومن التزوّد منه بالنظرة الأخيرة قبيل الفراق الذي لا لقاء بعده . . . .

وفي اليوم المضروب للرحيل ركب لكيز جواده الأصهب وأحاط به أبناؤه الثلاثة لابسين الخز والديباج من أبراد اليمن ومنتطقين بأحزمة الحرير شكّت فيها الخناجر المرصعة بالذهب والجوهر مما كان قد أهداه إليهم أمير اليمن . وضُربَ لليلى هودج جميل على ناقة وَجْناء استوت فيه مرتدية غالي الثياب متحلية بعقد الدرّ و بالدملج المرصّع باليواقيت وعقدت على رأسها منديلاً من الدمقس رمته إلى قذالها وأدارته على وجهها من الشمال إلى اليمين فكان لها لثاماً سترَ محيّاها وتراجع عن عينيها الدّعجاوين البرّاقتين . وكان في الركب رسول أمير اليمن ممتطياً صهوة جواده وقد أمسك بمقود ناقة ليلى تكريماً لها وتعظيماً . وركب نفر من غلمان لكيز نياقهم ولبسوا أسلحتهم واستعدوا لمرافقة ليلى وأبيها وحراستهما حتى يبلغا أبواب اليمن .

وكان في المودّعين أمّ الأغرّ وأخوتها فأوسعت ليلى تقبيلاً قبل أن تستوي في هودجها . ولما سارت القافلة في طريقها رجعت أمّ الأغرّ إلى بيتها وهي تذرف الدمع وتبع كليب وأخوته الظاعنين وانضمّ إليهم البرّاق وأهله بعد قليل فكان يخالس ليلى وتخالسه النظر وفي قلب كل منهما نار مستعرة .

وعندما وصلت القافلة إلى منعرج اللوى وهمّت بأن تسلك طريق اليمن توقف لكيز عن السير وحذت حذوه القافلة كلها

فودّع أولاده وانثنى إلى البرّاق وكليب وأهلها فحيّاهم تحية طيبة وشكر لهم عاطفتهم الكريمة فردّوا على التحية بأحسن منها ثم تابعت القافلة سيرها فوقفوا يشيعونها حتى غابت عن الأنظار فأداروا أعناق الخيل وعادوا إلى الديار .

وكانت ليلى كلما خطت بها الناقة خطوة بعد أن استأنفت القافلة مسراها تسترق النظر إلى البرّاق من خلال أستار الهودج وتكاد تسمع دقات قلبها من شدّة الخفقان حتى إذا حالت بينها وبينه الآكام والتلال أطلقت عبراتها المحبوسة وأجهشت بالبكاء . . .

جدّت القافلة في السير تمشي خبباً إلى غايتها في النهار وتنزل ضيوفاً في الليل على كرام العرب الذين تمرّ بهم في أثناء السُّرَى أو تنصب الخيام في الأرض القفر . وكان رسول الأمير كلما عرّجوا على واد ظليل أو مرج نضير ترجل وقطف بعض ما يلقى فيه من الشيح والقيصوم أو من العرار والأقحوان وقدّمه إلى ليلى تنعم منه بطيب الشذا وتزين به جوانب الهودج فتتقبله منه باسمة شاكرة .

واستمرّت القافلة تغذّ السير حتى جاوزت « الصمّان » ووصلت في طريقها إلى « وادي السباع » فأشار لكيز على رسول الأمير وغلمانه بالوقوف قليلاً في ذلك الوادي يأخذون

لأنفسهم فيه قسطاً من الراحة ويكحلون النواظر بحسنه وجماله فوقفوا الخيل وأناخوا الإبل وترجّل لكيز والرسول وقفزت ليلى إلى الأرض عندما بركت ناقتها فأخذت تسير الهوينى في شعاب الوادي وتملأ رئتيها من شميم الزهر ونسيم الفضاء الواسع قبل أن تنطبق عليها أبواب القصور وتصبح سجينة عيش لم تألفه وأمة رجل لا تستطيع أن تهبه قلبها .

وانتحى لكيز ورسول الأمير ناحية وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث في مختلف الشؤون ثم انحدرا من أعلى الطريق إلى عدوة الوادي ينهلان من الماء المنبجس من كبد الصخور وينتعشان بالرشاش المتطاير منه .

ولشدّ ما راعهما صوت ليلى ينبعث من وراء الصخور في جانب آخر من الوادي وهي تصرخ وتستغيث فخفّ الرجلان إلى نجدتها متجهين إلى مصدر الصوت مشفقين من أن تكون ليلى قد عضّتها بعض الأفاعي أو هاجمها بعض الوحوش . وهرع كذلك على صوت الاستغاثة غلمان لكيز وكانوا خمسة من الرجال الأشدّاء فسارعوا إلى نجدة سيدتهم وابنة سيدهم ولحقوا بأبيها ورسول الأمير وظلوا جميعاً يهبطون ويصعّدون في بطن الوادي وريود هضابه حتى لاحت لهم ليلى عن بعد وكانت قد خرجت من مسالك الوادي وبلغت الطريق .

كان الوادي قائماً إلى شمال الطريق الضاربة في مناكبها قافلة لكيز وكان إلى يمين الطريق سلسلة من التلال المكسوة بالشجر فلما وصل لكيز إلى ابنته ووراءه اليمنيّ والغلمان وسألها عن سبب صراخها قالت وهي تضطرب وتلهث :

— « كنت أجول في شعاب الوادي ثم تركتها صُعُداً إلى هذا التلّ فما إن كدت أقترب من هذه الشجرة الضخمة التي عرّجتم عليها حتى وثب من ورائها رجلان مدجّجان بالسلاح فأذهلتني المباغتة وصرخت مستغيثة غير أن الرجلين لم يمسّاني بسوء بل رأيتهما يطلقان سيقانهم للريح ويجتازان عرض الطريق ويغيبان وراء هذه التلال والهضاب التي ترونها إلى يمين الطريق فلعلهما حارسان من الحراس أو لعلهما بعض الأرصاد أوعز إليهما أن يكمنا وراء هذه الشجرة ليرقبا الطريق ويترقبا مرورنا أو مرور غيرنا بها ويبلغا رفاقهم فيقبلوا للسلب والنهب .

وشخصت أبصار أفراد القافلة إلى التلال التي أشارت إليها ليلى فهالهم أن يروا نحو خمسين فارساً قد برزوا من وراء القمم وانحدروا بخيولهم إلى الطريق وهم مشرعو الرماح شاهرو السيوف فسدّوا الطريق ووقفوا فيها صفوفاً متراصّة .

عجب أصحابنا من هذه المفاجأة وحاروا في تلمّس أسبابها وزادت حيرتهم لما رأوا فريقاً من هؤلاء الفرسان يرتدي الملابس

العربية في حين يرتدي الفريق الآخر بالملابس الفارسية فهم لا شك من جند فارس .

ولم تطل حيرتهم فقد تقدم زعيم الفرسان من لكيز وقال :

ــ « حييّت يا سيد ربيعة . » فقال لكيز :

ــ « حييت أيها الفارس . » فقال الفارس !

ــ « ألم تعرفني يا لكيز . » فقال لكيز :

ــ « ومن لي أن أعرف فارساً ملثّماً مقنّعاً . »

فنزع الفارس لثامه فما إن وقعت أنظار لكيز وابنته عليه حتى صاحا معاً مدهوشين مضطربين :

ــ « برد بن طريح . . . » فقال برد :

ــ « نعم برد بن طريح . . . برد الذي جاءك خاطباً إليلك ليلى فرددته خائباً يجرّر أذيال الخيبة والهوان . . . » فقال لكيز :

ــ «ما رددناك يا برد هواناً بك واحتقاراً لشأنك وإنما كانت هناك دواع حالت دون إجابتك إلى سؤلك . » فقال برد :

ــ « إن أمير اليمن لم يكن قد سمع بليلى . . . وإنما آثرت عليّ البرّاق الفتى الصعلوك . . . » فانتهرته ليلى قائلة :

ــ « إنه أشرف منك ومن أبيك . . . إنه من ربيعة لا من إياد التي ذلّت للأعاجم فضربوا عليها الذل والمسكنة . » فقال برد :

ـــ « وها أنت ذا يا لكيز تخلف وعدك للبرّاق وتسوق ابنتك أمَة ذليلة إلى أمير اليمن . » فقال رسول الأمير :

ـــ « على رِسلك يا سيدي. إن ليلي و بنت لكيز هي عروس عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن لا أمَتَهُ وستزفّ إليه ويعقد له عليها في اليوم الذي تصل فيه إلى صنعاء فحذار يا سيّدي أن تعرّض بالأمير وإلا سؤتَ مغبّة وعقبى . » فقال برد متهكماً ضاحكاً :

ـــ « لا شأن لي والأمير واعلم أني لم أغادر أرض فارس ولا اجتزت خليج العجم ولا يمّمت بجنودي شطر هذا الوادي وادي السباع لأتناوب الحديث معك عن أمير اليمن ولكن لأرقب مجيء السيد لكيز وابنته ليلى فقد علمت من أعواني وعيوني بيوم رحيله فسبقته إلى هذا المكان لأناقشه الحساب وأفوّت عليه ما سعى من أجله . . . » فقالت ليلى مغضبة :

ـــ « ومن أنت حتى تناقش سيد العرب الحساب أيها الغادر الخؤون . . . » فقال برد :

ـــ « أنا يا سيدتي من سيحول بينك وبين السفر إلى اليمن ومن سيحملك سبيّة لأمير فارس ينعم بقربك ويجعلك في حظيّاته وسراريّه . » فبادره لكيز ساخطاً وقال :

ـــ « خسئت أيها النذل فدون مرامك سيوف قبائل ربيعة

كلها . » فقال برد وهو يقهقه ضاحكاً :

— « وأين أنت من قبائل ربيعة يا أبا ليلى . ألا تنظر إلى من معي من الفرسان وكل واحد منهم بقبيلة برأسها . . . حتى سيفك قد تركته مغمداً في قرابه ومعلّقاً في سرج جوادك. فعدّ عن المقاومة إذا كنت فكّرت في المقاومة أو خطرت لك ببال فسأصحب ابنتك ليلى إلى أمير فارس بلاش بن الملك فيروز بن يزدجرد ولو حماها ألف سيف من سيوف العرب . »

فصاحت فيه ليلى :

— « أبلغتْ بك الخسّة والنذالة أن تصبح خطّاف النساء . . . »

فقال برد :

— « رفض أبوك ورفضتِ أن تكوني لي الحليلة المكرّمة فكوني إذن لمولاي أمير فارس الحليلة المواتية . . . وإن شئت فادفعي إلى أبيك ما تتحلّين به من جواهر فلدى أمير فارس ما يغنيك عنها . . . » فقالت ليلى شامخة بأنفها :

— « وما حظك أنت من التلوّث بهذا الإثم . . . » فقال برد :

— « حظي أن أنتقم لنفسي منك ومن أبيك وأكون أثأر من قصير فأراك ممرّغة في التراب ذليلة بعد عزّة متبذلة بعد عفّة تَصِمين أهلك وعشيرتك بوصمة العار بعد أن كنت لهم

ميسم زهو وفخار . . . ولكن كفانا ثرثرة فهيّا اصحبيني . . . »

وحاول لكيز أن يهجم على برد ويمزّقه تمزيقاً وحاول محاولته الرسول اليمنيّ والغلمان الخمسة فقد كانوا متقلدين أسلحتهم غير أن ليلى قدرت أن لا فائدة من المقاومة فأنّى لسبعة رجال أن يظفروا بخمسين فارساً غارقين في الدروع والسلاح فحقنت الدماء وحالت بين أبيها وغريمه وقالت :

ــ « حنانَيْك يا أبتِ لا تلطّخ يديك بدم رجل تنبض عروقه بالغدر والإثم والخيانة لئن كنت أنت أجرأ من قسورة إنه أجبن من نعامة فلن ينازلك وحده ولكن بهذه الرماح والسيوف المشرعة حوله . . . فاتركني لمصيري البائس وادْعُ بأن يرحمني الله الذي أعبده . . . »

ونزعت من جيدها العقد ومن معصمها الدملج وسلّمتهما إلى رسول أمير اليمن قائلة :

ــ « خذ هدية مولاك وأرجعها إليه مشفوعة بشكري وتحيّتي وقل له إن عروسه كانت فريسة لصّ من لصوص النساء . »

وارتمت على أبيها تقبّله وتودّعه ثم التفتت إلى برد بن طريح وقالت :

ــ « ها أنا ذا أسيرتك أيها الرجل فسرْ بي إلى حيث تريد . »

فأشار برد إلى بعض رجاله فجاؤوه بجواد مسرج أثمن إسراج فقال يخاطب ليلى :

— « عرفتك يا أميرة البادية فارسة تجيدين ركوب الخيل فامتطي هذا الجواد الأدهم واصحبينا. وإياك والهرب فإنه جهد في غير طائل . »

فاعتلت ليلى متن الجواد وأحاط بها الفرسان من كل جانب وسارت تلك الكوكبة تنتهب الأرض انتهاباً في طريقها إلى فارس يتقدّمها برد بن طريح الإيادي . . .

ومشى لكيز وغلمانه إلى مطاياهم فركبوها وأقبل لكيز على رسول أمير اليمن يودّعه ويحمّله إلى الأمير السلام والتجلة ولم يزد. وعاد بغلمانه إلى دياره بالجزيرة وكان بين حين وحين في أثناء العودة يتطلع إلى الهودج الخالي ويتفقد ابنته فيه فلا يراها فتدمع عينه من فيض الأسى وتذهب نفسه حسرات . . .

٨

استأذن برد بن طريح في الدخول على بلاش ابن ملك فارس وكان هو المستوي على العرش مدّة غياب أبيه في ساحة القتال فأذن له فدخل وحيّا وقبّل الأرض بين يدي ابن الملك وقال :

— « لقد جئتك يا مولاي بأميرة البادية وإنها لتحفة العرب أجمعين . » فقال بلاش :

— « أهي التي حدّثتني عنها وقلت إن عمرو بن ذي صهبان خطبها إلى أبيها . » فقال برد :

— « أجل يا مولاي وإنك لأجدر بهذه التحفة النفيسة من أي أمير آخر فسوف تكون درّة متألقة بين جواريك وحظيّاتك . » فقال بلاش :

— « بورك فيك يا برد فوحقّ النار والكواكب إنك للعبدُ الذكيّ الأمين . ولكن قل لي كيف رضيتْ أن تستبدلنا بأمير اليمن . . . » فقال برد :

— « خطفتها يا مولاي وهي في طريقها إليه واعلم يا مولاي أنها زين عذارى ربيعة على الإطلاق . . . » فقال بلاش :

— « طالما حدّثتني عنها وأسهبت في وصف جمالها وكمالها ووعدتني أن تغريها بالمجيء إلينا وتنتظم في سلك جوارينا . أمّا أن تخطفها وتقودها إليّ قسراً فلا . . . إني أشتهي نظر هذه الحسناء ولكن لا أكرهها على ما لا تريد . . . »

وأحسّ برد أن الفريسة ستفلت من يديه وأن صرح الثأر الذي بناه سينهار انهياراً فبلع لعابه وقال :

— « إنها راضية كل الرّضى بأن تكون أَمَتك وجاريتك تنيلك من نفسها ما تشتهي ولقد أنزلتها داري وأمرت بإصلاح شأنها وجلوها أحسن جلاوة فإن شئت يا مولاي كانت في قصرك هذا المساء وسترى أن لخادمك برد نظرة صائبة . »

فتبسّم الأمير بلاش وأجزل صلة برد ثم أشار إليه بالانصراف فانصرف .

وكان الأمير محبًّا للهو والقصف غير أنه كان طيب السريرة كريم الخلال ما حدّثته نفسه قط أن يقطف ثمرات الأنس عنوةً واقتداراً. ولعلّ فتوره عن الاحتفال بهديّة برد على ما كان برد يحبّ ويرجو بعد شديد عنائه أنه كان مشغول الفكر قلق البال على أبيه الملك وعلى عمّه هرمزد وأخيه قباذ فقد ذهبوا جميعاً على رأس الجيوش الفارسية لقتال الهياطلة بعد إذ جاءتهم الأنباء أن الهياطلة خرجوا من باب سمرقند وأمير اللواء فيهم ابن خاقانهم

وتوغلوا في بلاد فارس يعيثون فيها فساداً وينشرون الخوف والذعر والدمار .

وكان بلاش كلما بلغته الهزائم التي تحيق بجيوش فارس اضطرب وخشي قيام الفتنة في المملكة فقد بوّأه أبوه سرير السلطنة مدة غيابه ولكنه أعجز من أن يقمع فتنة أو يخضد شوكة ثورة. وكثيراً ما رجع إلى نفسه المسالمة الوادعة وقال : سامحتْكَ الكواكب يا أبي. لماذا نقضت العهد الذي أبرمه جدّك بهرام جور بينه وبين خاقان الهياطلة . ولماذا اخترقت الحدود التي جعلوها فاصلة بين المملكتين . فمن يدري ماذا تكون عاقبة هذه الحرب أو لعلني أدري فبوادرها معلنة عن خواتيمها . فلم يكن بلاش إذن على حال تسمح له بالاغتباط بصيد جديد من غزلان الأنس فإن يكن قد استمع لبرد يروي له كيف اصطاد الطريدة ويغريه بالإطباق عليها فقد كان يستمع له بأذنيه لا بقلبه .

وانفلت برد من لدن الأمير والدنيا ضيّقة في عينيه على رحبها وما برح على طول الطريق من قصر الملك إلى داره يُعمل الفكرَ ويقرع باب الحيل لعله يجد مخرجاً من هذا المأزق الذي تردّى فيه . فقد زعم للأمير أن ليلى جاءت إليه طائعة مختارة ووعده بأن تكون في ذلك المساء بين إمائه وجواريه في القصر

على حين أنها ناشزة نشوز الفرس الجموح لم تتورّع عن أن تسمعه قوارص الكلم وتنعته بأحطّ النعوت عندما تركها في داره وأمر زوجته بأن تعدّها ليحملها بعد قليل إلى الأمير . . .

كان يعرف ما جبلت عليه نساء العرب من إباء وشمم فإذا لم يرضين بأمر من الأمور طواعيةً فلا سبيل إلى حملهن عليه كراهية. وكان يعرف أن ليلى فوق نساء العرب جميعهن عزّة وإباءً ولكنه كان يعلل النفس أن يكسر سلطان الأمير شوكتها وأن تدفعه الرغبة فيها إلى أن يفرض عليها الطاعة والامتثال. فها هو ذا الأمير لا يقسو ولا يتشدّد كأنه لا مطمع له فيها ويترك لها الخيار في السعي إليه أو الإعراض عنه. فماذا يفعل في الوعد الذي قطعه للأمير وتكفّل فيه أن تكون في قصره بعد ساعات قلائل. فهبْها أبتْ وتمنعت وسوف تأبى وتتمنّع فبماذا يعتذر إلى الأمير وبأي وسيلة إذن يشفي غليله الظمآن للثأر ويحقق أمنيته بأن يجعلها سبيّة ذليلة بعد أن استعصت عليه حليلة شريفة . . .

استعرض في ذهنه مختلف الوسائل وهو سائر إلى منزله فقرّ قراره على أن يأخذها بالشدّة متوعّداً مهدّداً إذا كانت لا تزال على عصيانها وتمرّدها. فما إن يدخل داره حتى يهرع إلى زوجته ويسألها :

— « أزيّنتها وألبستها فاخر البرود الفارسية بدل برودها اليمانية

لأحملها جميلة متبرجة إلى ابن الملك . » فقالت زوجته :

ـ « هيهات . أين منك هذا الحديث . فما إخالك تستطيع أن تذهب بها إلى ابن الملك إلا إذا قتلتها وحملتها إليه جثة هامدة . فلقد منعتنا نظرها لاتحدثنا ولا تصغي إلينا. وقدمنا إليها. شهي الطعام فما مدت إليه يداً . وهي هائجة ثائرة كاللبؤة فقدت أشبالها . ولا أكتمك أن الشفقة أخذتني عليها فرثيت لحالها . . . » فقاطعها زوجها برد قائلاً :

ـ « لكأني بعرقك العربي قد أثار فيك الرأفة بها والحنان عليها فلا تنسي أنك من إياد وهي من ربيعة وأننا نحمل في دمائنا جرثومة الشقاق بين ذينك الأخوين . . . » فقالت :

ـ « وحق كعبتنا بسنداد والنار التي أعبدها وإياك منذ أن أصبحت زوجة لك ليس العرق العربي هو الذي أثار فيّ الرأفة بها والشفقة وإنما هو عرق تعاطف الإنسان على الإنسان وحدب المرأة على المرأة . . . » فقاطعها وقال :

ـ « كفى هذياناً فأنت زوجتي منذ نحو عام وما رأيتك قط في مثل هذا الغباء. أتراك خالجك الندم على اللحاق برجل يخدم بيت فارس ويوفّر لك كل أسباب النعيم . » فقالت :

ـ « كلا وأيم الحق وسترى أنت نفسك أن هذه الفتاة

جديرة بالرثاء . »

فترك زوجته واقتحم على ليلى باب مخدعها وصاح فيها مزمجراً :

ــ « هيّا انهضي وتجمّلي فالأمير في انتظارك . »

فنظرت إليه نظرة ملؤها الاحتقار والازدراء ولم تجب فقامت قائمته وأردف قائلاً وهو يرغي ويزبد غضباً وسخطاً :

ــ « لئن لم تمتثلي لأمري لأعذّبنك عذاباً شديداً ما خطر لك على بال . » فقالت :

ــ « إن يد ابن عمي البرّاق كفيلة بأن تردّ كيدك في نحرك والويل لك يوم يلقاك فإنه سوف يمثّل بك تمثيلاً ويمزّق بسيفه وجهك الذي لا حياء فيه وقلبك الذي تفضله قلوب الوحوش . »

فضحك برد بن طريح ليخفي الجزع الذي استولى عليه من ذكر البرّاق ولكنه اطمأنّ بالاً فبينه وبين البرّاق سهول وجبال وبوادٍ وقفار ثم شغلته فكرة إرضاء ابن الملك والوفاء بالوعد فعمد إلى الملاينة والملاطفة وإن تكن نار الحقد على ليلى تستعر في قلبه استعاراً فقال :

ــ « إنك ثائرة عليّ اليوم ولكنك في غد ستغمرينني بآيات الحمد والشكران لما ستلقينه في بلاط فارس من مجد ونعمة وستقولين أنقذني برد بن طريح من حظائر الشّذَب وبجاد الوَبر

وحشايا الشّعَر ونقلني إلى بيوت الرخام والذهب وغالي الرياش وفاخر الآنية . إنك ستلبسين الخزّ وتتحلين بالجواهر وتأكلين بصحاف الفضة والذهب . . »

فرمته ليلى بنظرة ثانية من نظرات الاحتقار والزراية فتجاهل معناها وقال :

— « قد تقولين إنك كنت ذاهبة إلى اليمن تلقين فيها بعض هذا ولكن أين الثريا من الثرى وأين فارس من اليمن وأين حمْيَر من ساسان فما خرج اليمنيون على غناهم عن نطاق العرب الأجلاف أكلة الضِّبَبة وروّاد البوادي . »

فلما أكثر عليها غلى في عروقها الدم العربي وتلظّت في جوانحها الحميّة العربية فنهضت واقفة وقد تطاير الشرر من عينيها واعتمل الشِّعر في صدرها وأنشأت تقول :

« لو كنت منتسباً إلى شَيبانِ لحفظتَ فرعهمُ بكل لسان
وعرضت عن فعل الخناء أخا الخنا وغضضت طرفاً مستحي الأجفانِ
وأنا النسيبة والعفيفة فاعلمن يا ابن الدنيّة يا ابن كل أتان »

فكلح وجه برد من الغضب عند سماعه هذه الأبيات وانقلب إلى وحش ضار وقال :

« ويحك . . . أبرد بن طريح ابن أتان . . . أليس إياد

وربيعة أخوين . . . » فقالت :

— « كذبت يا ابن الفارسية . . . ما أنت من إياد فلو كنت منها ما رضيت في ربيعة هذا الفعل ولا سقت ابنة من بناتها إلى المعصية والفحشاء وإنما أنت زنيم وابن زنيم . . . »

فأطارت كلمات ليلى صواب برد فاستشاط غيظاً واندفع كالعاصفة إلى خارج الحجرة وهو يهدر هدير البعير وأمر عبيده وغلمانه فهجموا على ليلى وقيدّوها بالأغلال وضربوها ضرباً مبرّحاً وبرد ينظر إليها غائر العينين فائر الصدر حتّى رآها سقطت لا تعي فاستوقف عبيده وصرفهم واقترب من ليلى فسمعها تزفر وتتنهدّ فقال لها :

— « سنعاود الكرّة إذا بقيت على عنادك وإصرارك ولن ينقذك من ضربات السياط إلا إذعانك لما طلبته منك ووعدك إياي بأن تذهبي إلى الأمير راضية متبسمة . وحذار أن تفضي إليه بغير ما ألقّنك إياه وإلا فأنت هالكة لا محالة . » فقالت له بصوت ضعيف يكاد لا يبين :

— « اقتلني فللموتُ خير من هذا العذاب . . . »

ثم تركها وذهب إلى بعض شأنه على أن يعود عما قريب ودخلت زوجته على ليلى تواسيها وترطّب خاطرها وتعنى بها عناية الأخت بأختها فاستعادت ليلى شيئاً فشيئاً قواها واستوت

جالسةً تفكر في مصيرها المشؤوم فقالت لها زوجة برد :

— « يعزّ عليّ يا أختاه ما نالك من أذى . ويعزّ عليّ أن لا يسمع زوجي شفاعتي فيك وأن تنزلي ببيتي فتلقي فيه هذا الهوان . . . » فقالت ليلى :

— « شكراً لك يا أختاه فما أنت مسؤولة عن هذا الهوان... » فقالت زوجة برد :

— « لقد بلغتِ في عرضك عذراً يا أختاه فاقبلي نصيحتي فليس هذا أوان عفة ولا أنت في أهلك وحياطة عشيرتك حتى يدفعوا عنك الأذى ويصونوا ما تُدلين به من عفاف . . . » فقالت ليلى :

— « القتل أهون عليّ يا أختاه مما يقسرني عليه . . . »

ولم تقو على متابعة الكلام فأجهشت بالبكاء وبكت معها زوجة برد ثم خشيت أن يفاجئها زوجها وهي تبكي فغادرت الغرفة على أن تعود إلى ليلى بعد قليل فذهبت تصلح من شأنها وتغسل عينيها لتزيل منهما أي أثر للدموع والبكاء .

واستسلمت ليلى إلى حزن عميق وشقّ عليها أن تواجه الأخطار وحيدة لا حَوْل لها ولا طَوْل غريبة عن الأهل والديار . . . فلو كانت في ربيعة لحمى عرضها ألف سيف ولجنّبها العار ألف مغوار من مغاوير العرب وصناديدهم .

وفي طليعتهم أخوتها وأخوالها والبرّاق وأخوته . وشعرت أن انصراف فكرها إلى أهلها وعشيرتها إهانة للبرّاق فقد كان عليها أن تفكر فيه أوّلاً بل أن تفكر فيه أوّلاً وآخراً فهو فارس بمقام ألف وهو حبيب الروح وصنو الفؤاد . ألم تكن في السبايا يوم أغارت قضاعة وطي على أحياء ربيعة. أوليس البرّاق هو الذي أنقذها من هوان الأسر وردّ على القبيلة عزّتها وشرفها فأمّرته عليها واعترفت له بالسؤدد والجلال. فكيف لا تقصر اعتمادها عليه.

وأخذت تناجيه وتعتذر إليه عن إشراك إخوتها وإخوته وأخوالها وفرسان القبيلة طرًّا في النجدة المرجوّة وتهتف في نفسها : سامحني يا برّاق فما كان لي أن أستنصر سواك ولا كان لي أن أعتمد إلا على ساعدك القوي وقلبك الشجاع . . . ثم تعود إلى نفسها محدّثة وتقول: ولكنهم أهلك وأهلي يا برّاق فما إخالك إلا راضياً عن أن يكونوا لك الأجنحة المرفرفة ـ وأن تكون لهم القلب الخفّاق . . .

وتثوب إلى رشدها وتمّحي أشباح الخيال من خاطرها وتوقظها من أحلامها الحقيقة المؤلمة فتدرك أن البرّاق لو استحال إلى طائر يسبح في أجواز الفضاء لقضى أياما وليالي قبل أن يصل إليها. ولو انقلب إلى إعصار يلهب بسوطه ظهور الرياح ويقتلع في سيره الأشجار ويدحرج الجبال لاحتاج إلى رَدَح من الزمن

قبل أن يتنقل من أحياء ربيعة في الجزيرة إلى دار برد بن طريح في فارس .

وتذكر هذا الوحش الضاري فترتعد فرائصها فرقاً ويخيّل إليها أنه رجع يكيل لها الضربات فتفزع إلى البرّاق وفرسان عشيرتها أجمع وتستغيث بهم وتناجيهم قائلة :

ليت للبرّاق عيناً فترى ... ما أقاسي من بلاء وعنا

يا كليباً يا عقيلا إخوتي ... يا جنيداً أسعدوني بالبكا

عُذّبت أختكمُ يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحاً ومسا

غللوني قيّدوني ضربوا ... موضع العفة مني بالعصا

يكذب الأعجم ما يقربني ... ومعي بعض حشاشات الحيا

قيدوني غللوني وافعلوا ... كل ما شئتم جميعاً من بلا

فأنا كارهة بغيتكم ... ويقين الموت شيء يرتجى

أتدلون علينا فارساً ... يا بني أنمار يا أهل الخنا

يا إياداً خسرت صفقتكم ... ورمى المنظر من بردَ العمى

يا بني الأعماص إمّا تقطعوا ... لبني عدنان أسباب الرجا

فاصطباراً وعزاءً حسناً ... كل نصر بعد ضرّ يرتجى

أصبحت ليلى تغلّل كفها ... مثل تغليل الملوك العظما

وتقيّد وتكبّل جهرةً ... وتطالب بقبيحات النبا

قل لعدنان فديتم شمّروا ... لبني الأعجام تشمير الوحى

واعقدوا الرايات في أقطارها واشهروا البيض وسيروا في الضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا وذروا الغفلة منكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم وعليكم ما بقيتم في الورى

وكانت زوجة برد بن طريح قد عادت إلى ليلى لتهوّن عليها خطبها فسمعتها تنشد هذه الأبيات فرقّ قلبها لها وفعل فيها الأسى فعله وكادت تنشج وتنتحب فغالبت نفسها وعزمت أن تبذل ما تستطيع من معونة لهذه الفتاة العفيفة البائسة. فنادت قيْنَة لها عربية من بنات إياد وروت لها الشعر وأمرتها بأن تخفّ إلى جبير بن طريح أخي زوجها برد وتنشده الأبيات وتطلب إليه باسمها سرًّا أن يهرع إلى نجدة الفتاة بأية وسيلة من الوسائل. فانطلقت القيْنَة مسرعة إلى أخي سيدها وقصّت عليه كل ما شهدته من ضروب القسوة والغلظة وأنشدته الأبيات وكانت القينة قد مالت هي أيضاً إلى ليلى ورثت لحالها فأضافت إلى رجاء سيدتها إلحاحها على جبير بن طريح بأن يسرع في إنقاذ هذه الشقية المسكينة قبل أن يعود أخوه برد إلى المنزل فيستأنف قسوته وغلظته.

سمع جبير هذه القصة الغريبة فنالت من فؤاده كل منال وأدرك بثاقب نظره أن الفتاة هي ليلى بنت لكيز فقد كان يعرف

أن أخاه خطبها منذ نحو عام إلى أبيها فرجع خائباً وكان كذلك على صلة بكل ما جرى في ربيعة من حوادث إلا خطف ليلى فسمعته القينة يقول لنفسه: قُبِّحتَ يا برد فما هذه أعمال الرجال الشرفاء ثم سمعته يقول لها:

— « عودي إلى مولاتك وقولي لها إني سأركب الصعب في سبيل نجدة الأسيرة العربية ولو غضب أخي وساء مآلاً . »

فانكبّت القينة على يديه تقبّلهما وتدعو له بالعمر الطويل وتقول له:

— « حيّيت يا سيّدي من رجل نبيل . . . هكذا تكون نخوة الرجال . . . هكذا تكون نخوة العرب. . . »

وعادت أدراجها تخبر سيّدتها بتلك البشرى وترجو أن لا يكون سيدها برد قد عاد إلى الدار يذيق ليلى مرّ العذاب .

وأخذ جبير بن طريح بعد انصراف القينة يفكر فيما عساه يفعل حتى ينقذ ليلى من عذاب الجسم والروح فرأى أوّلاً أن يذهب إلى أخيه برد ويعنّفه على فعله ويقنعه بأن يكفّ عن أذية فتاة بريئة ويحول دون ما قدرّه لها. ولكنه ذكر ما اتّصف به أخوه من شراسة في الخلق وغلظ في الكبد وميل إلى الثأر والانتقام فعلم أن جهده ضائع في حمل أخيه على غير ما انتوى فقال في نفسه لأسعينّ إلى الأمير وألتمس منه أن يطلق سراح هذه

المسكينة وأن لا يلطّخ مجده بعار لا يمحى . ولسوف أجرؤ على حديثه ففي الأمير جوانب كريمة تشجّعني على ذلك .

ومضى لوقته إلى قصر الملك وكان الأصيل قد بدأ يحول لونه ويتوارى مع غروب الشمس فاستأذن على الأمير فأذن له فدخل وحيّا وسلّم بالإمارة ورفع إليه ما عرف من شأن ليلى وما سمع . وأنشده الأبيات مترجمة إلى الفارسية فاستاء الأمير كل الاستياء من فعل برد ولامه لوماً شديداً وقال :

— « ما كنا لنزيد هذه الفتاة ألماً فوق آلام الغربة والوحشة . »

ثم أمر برئيس الشرطة وأنهى إليه أن يذهب إلى دار برد بن طريح ويدعو فتاة عربية فيها تسمى ليلى إلى أن تنزل عليه ضيفةً عزيزة كريمة في دار خاصة وأن تجرى عليها المكارم حتى ينظر في أمر عودتها إلى أهلها وديارها . فأثنى جبير بن طريح على الأمير الثناء المستطاب وشكر له أريحيته وفضله وصحب رئيس الشرطة إلى دار أخيه برد ليهدّئ من روع ليلى ويحيطها بالأمن والطمأنينة . . .

واتفق أن دخل الكاهن الأعظم على الأمير بعد ذلك فروى له قصة ليلى واستشاره في أمرها فناجى الكاهن النجوم والكواكب وصلّى لها واستوحاها الهداية في شأن الفتاة ثم قال للأمير :

ـ « تقول النجوم المقدسة : ستنكب بلادنا بالفتن الشديدة من أجل هذه الفتاة وستطأ العرب بلاد فارس وتكثر المواقع بيننا وبينهم ويكثر فيها القتل والنهب والسلب . وتقول أيضاً النجوم المقدسة : إن وجود هذه الفتاة على أرض فارس نعمة وبركة فالنصر على العرب محقّق لنا ما دامت فينا . . . وقد تستخدمها فارس لتدرأ عنها أمراً ترى فيه خزياً وعاراً . . . »

فنزلت كلمات الكاهن على قلب الأمير برداً وسلاماً فأصدر أمره بالإمعان في تكريم ليلى والحفاوة بها وشمولها بآيات التعظيم وبأن تتوفّر على خدمتها الرجال والنساء ولكن أمر كذلك بأن يضرب حولها نطاق شديد من الحراسة فلا يزورها أحد ولا تزور أحداً . . .

٩

عاد لكيز إلى الجزيرة واجماً ساهماً تمزّق أحشاءه الأحزان ويعصف بقلبه الجزع على ابنته والعجز الذي حال بينه وبين إنقاذها ويلوم نفسه على أنه لم يفتدها بدمه فقد كان الأولى أن لا يذهب بها برد بن طريح إلا بعد أن يدوس على جثته فما انتفاعه بالحياة بعد اليوم مملوءة بالغمّ ملوّثة بالعار .

ولم ينفكّ طول الطريق تهجس به الهموم والخواطر السود لا يكلم غلمانه ولا يكلمونه إشفاقاً منهم عليه ورعاية لسكوته حتى وصل إلى الجزيرة وذاع في أنحائها خبر اختطاف ليلى فقابله القوم بعاطفة متضاربة فما زال فيهم أناس حانقون على لكيز فواتهم الفرصة للتعنيف والشماتة .

وتلقّى أخوة ليلى النبأ الأليم فأقامهم وأقعدهم وودّوا لو يعمدون إلى سلاحهم ويطيرون إلى ليلى وينقذونها من براثن الذل والسبي والعار ويسفكون في سبيلها دماءهم حتى آخر قطرة ولكن أنّى لثلاثة فتيان أن يحاربوا دولة برأسها فليس لهم إلا ابن عمّهم البرّاق يستصرخ القبائل وينهض بها إلى حرب الأعاجم والرجوع بليلى عزيزة نقية .

أجمع الفتيان الثلاثة على أن يذهبوا إلى البرّاق ويستفزّوا حميّته فهما بلغت إساءة أبيهم إليه فليلى ابنة عمّه وبنت قبيلته وشرفها من شرف القبيلة وهو رئيسها وزعيمها وحسب هذا سبباً يدعوه إلى أن يمشي إلى نجدتها وينفر ويستنفر العشائر إلى انتزاعها من هون الأسر وشقائه بَلْهَ ما يعرفونه فيه من نخوة وشجاعة وكرم نفس وحبّ لليلى متغلغل في الضلوع .

ذهب الفتيان الثلاثة إليه فلقوه في خبائه هائجاً هياج الأسد فسكّن جأشه ورحّب بهم وبادرهم قائلاً :

ـ « أمسكوا يا أبناء العم . إني أعرف لماذا جئتم إليّ . فوحقّ من روحي بيده لأبذلنّها رخيصة سمحة في سبيل ليلى . أرسلت أخوتي منذ قدم عمي لكيز يستصرخون العشائر وسنشهرها حرباً شعواء على إياد والأعاجم حتى نعود بزين العذارى وغرّة القبيلة . »

فارتمى أخوة ليلى عليه يقبّلونه ويشدّون على يديه شاكرين يكاد الدمع يطفر من أعينهم ويكاد جميل البرّاق يحبس ألسنتهم عن الكلام والاستفاضة في الشكر الجزيل .

وكانت أمّ الأغرّ في تلك الساعة توغر صدر أخيها كليب وتغريه بتأليب القبائل والسير فيهم تحت راية البرّاق إلى بلاد

الحونة اللئام ليعودوا بالحبيبة الغالية . وكان كليب يسمع كلامها صامتاً ويقدح زناد فكره فيمن يستصرخ وعلى من يعتمد في تلك الحرب الضروس فاستفزّها صمته وحسبَتْه في المتقاعسين الحاذاين فأغلظت له القول وقرّعته منشدة :

«أراك عن الأمر المشتّت غافلا كأنك ناجٍ من خزاياه سالمُ
فإن امرءاً عن مثل هاتيك غافل فليس تراه في العلى وهو قائمُ
فسيروا لليلى أو رميتم بعارها لقد رسخت في عار ليلى الأراقمُ»

فقال كليب :

— «كفّي يا أختاه عن التقريع فوحقّ مناة لو كان لي ألف روح لما بخلت بواحدة منها فداء ليلى وإنما كنت أراجع النفس في الأهبة التي نتخذها في هذا الخطب الجلل .»

فقالت أمّ الأغر :

— «اجمع أخوتك وسيروا إلى البرّاق وانظروا معه ما أنتم فاعلون .» فقال كليب .

— «هو ذاك يا أمّ الأغرّ . . .»

وعرّج كليب على أخبية أخوته فذهب بهم إلى البرّاق فالتقوا بأخوة ليلى عنده فواسوهم ووعدوهم بالنصرة والعون . وحدّثوا البرّاق في ذلك فقال :

ـ « وهل يداخلك الشك في هذا يا كليب والله لننقذنّ ليلى من أشداق الوحوش وأظفار الذئاب . . . »

وقطع عليه الكلام رجوع أخوته فجزع لما رأى علامات الأسى بادية في أعينهم فبادرهم قائلاً :

ـ « ما وراءكم أيها الأحباب . إني لأرى الكآبة وشّحتكم بخمارها الأسود . » فقال كبيرهم :

ـ « خذلنا معظم قبائل ربيعة فلا مضر ولا بكر ولا جميع بطونهما رضيت أن تهبّ للقتال وأرسلنا نستنفر قبائل قضاعة وطي وسدوس ومن إليها فما أجابنا أحد أفيخوضها بنو تغلب وحدهم . » فقال البرّاق :

ـ « أجل . أليسوا الأراقم . على أن بني أسد ستمشي معنا فهيّا بنا يا أخوتي وأحبابي نعدّ لها الخيل الجياد والبيض الحداد والسُّمْر الصِّعاد . »

وسار البرّاق إلى فارس في بني تغلب و بني أسد وهو ينشد :

أمن دون ليلى عوّقتنا العوائقُ	جنود وقفر ترتعيه النقانقُ
وعجمٌ وأعرابٌ وأرضٌ سحيقةٌ	وحصنٌ ودورٌ دونها ومغالق
أليلى استطالت ليلتي قبل هذه	وقدبات دمعي وهو في الخد دافق
فكيف وقد أصبحت في دار غربة	وأسلمك الشيخ الجهول المنافق

أليلى وأنت القصد قد غالك النوى ... وفعل لئيم يا ابنة العم سابق
فلابد من عنف وزحف ومحنة ... وأفلح إنسانٌ من الجهد زالق
فمن مبلغ بردَ الإيادي وقومه ... بأني بثاري لا محالة لاحق
ستسعدني البيض الصوارم والقنا ... وتحملني القبّ العتاق السوابق
رمى الله من يرمي الكعاب بريبةٍ ... ومن هو بالفحشاء والمكر ناطق

وما زال سائراً بعسكره وقوّاده آناء الليل وأطراف النهار يطوفون بالدساكر والقرى والقفار والسهول ويصعّدون في الجبال ويهبطون الأودية حتى بلغوا أول حدود فارس عند مدينة « كرخاء » فنادى بالوقوف والاستجمام استعداداً لخوض المعركة في الفجر المقبل فضُربت الخيام وأبركت الرواحل وأطلقت الخيول وقضى القوم سحابة يومهم يشحذون السيوف ويقوّمون الرماح والأسنّة ويعدّون عدّة القتال والنزال.

وعند انبلاج الفجر انقضّوا على المدينة وأعملوا سلاحهم في عسكرها فأبادوا المقاتلين وأسروا الهاربين واستولوا على ما وقع في أيديهم من غنائم وباتوا ليلتهم نشاوى بخمر النصر تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم وثباً إلى عاصمة فارس ليخوضوا فيها غمرات القتال إلى ليلى فينقذوها ويعودوا فائزين .

وتفاءل البرّاق من عاقبة المعركة الأولى وما أصابوه فيها

من نصر مبين فلما أوى إلى مضجعه في مساء ذلك اليوم يأخذ لنفسه فيه نصيباً من الراحة قبل استئناف السير في صباح اليوم التالي لم يستسلم إلى النوم بل استسلم إلى الخيال يضرب في بواديه ومفاوزه وينتقل به الفكر إلى ليلى يستشفّ من وراء حجب الغيب كيف هي وأنّى تكون وكيف سينقضّ على حرّاسها جميعاً ويذبحهم ذبح النعاج ويعود بليلى طاهرة الذيل باسمة الثغر وضّاحة الجبين .

وعند انبلاج الصبح جمع فرسانه واستأنفوا الغارات فما دخلوا قرية إلا دمّروها بعد قتال أو حقنوا دماء أهلها وحرّاسها إذا أعرضت عن قتالهم وسلّمت لهم ما فيها من أموال ونجائب وسلاح .

ولازمهم النصر حتّى بلغوا عاصمة فارس فخيّموا على مقربة منها وبقوا على ذلك عدّة أيام يجمعون جموعهم وينظمون صفوفهم ويستعدّون لليوم العظيم الذي يدخلون فيه المدينة ويذيقون الفرس ضروب النكال .

وحان اليوم الموعود فلبسوا السلاح وتجهزّوا للموقعة الفاصلة وطاف البرّاق بأخوانه المحاربين ينفخ فيهم روح العزم ويشدّد قواهم ويثير حفائظهم ويمنّيهم بالأسلاب والكنوز فإذا هم يضارعونه عزماً وهمّةً وشوقاً إلى النزال والجلاد .

وطاف البرّاق طوفته الأخيرة فملأ عينيه وأذنيه وقلبه بما رأى

وسمع من تحفّز الفرسان وصهيل الخيل وقعقعة السلاح فنادى فيهم :

— « يا بني تغلب الشجعان . يا بني أسد المغاوير . شدّوا على العدو شدّة الرجل الواحد ولا تأخذنّكم فيه رحمة ولا هوادة وروّوا أسنّتكم ونصال سيوفكم من دمائه ليعرف أن العرب لا يستنيمون إلى الضيم ولا تُغمز لهم قناة . . . »

فدوّت أصواتهم تشقّ عنان السماء صائحين :

— « لبّيك يا برّاق . لبيك يا برّاق . »

وسالت بهم الأودية والبطاح وفي طليعتهم البرّاق لابساً لأمته الكاملة ومجرّدا سيفه بيمينه قافزاً به جواده قفزات ترعب الأسود .

وما كادوا يقتربون من مدخل العاصمة حتّى فوجئوا بما لم يكن في الحسبان فقد انهالت عليهم النبال والحجارة من رماة متدارين وراء الأسوار والقلاع فقتلت منهم عدداً كبيراً وأشاعت الفوضى والاضطراب في صفوفهم ومزّقتهم شرّ ممزّق فما كان لهم عهد بهذا الضرب من القتال فنالت الفجاءة منهم منالها واستتمّت لهم الهزيمة عندما خرج جيش فارس إليهم ما بين رجّالة وفرسان وراكبي الفيلة وساقة المجانيق تنبعث منها الحجارة كالمطر المدرار فقُتل من العرب من قتل وأسر من أسر ولاذ بالفرار من لاذ .

وأبلى البرّاق في تلك المعركة بلاءً حسناً ولكنه أيقن أن لا قِبَل لهم بالغلبة على أولئك المَرَدة في عديدهم وعُدَدهم فلمّ فلول رجاله ونأى بهم بعيداً عن مرمى النبال والحجارة وعقد هو ورؤساء الألوية اجتماعاً تداولوا فيه الرأي فقرروا أن يتفرّقوا في قنن الجبال ويعتصموا بها ويشنّوا على العدو غارات مفاجئة وأن يستدرجوه إليهم كتيبة كتيبة فلو واجههم مجتمعين لقضى عليهم لا محالة .

فأوعز البرّاق إلى كل رئيس لواء أن يتوارى ورجاله وراء هضبة عيّنها له وأن يتخذوها معقلاً يحتمون به ويقتنصون منه جنود العدو فرداً فرداً أو جماعة جماعة فإن معاقل الجبال تجنّبهم هجمات الفيلة وحمم المجانيق . فأمّنوا على كلامه وهمّوا بالتفرّق إلى معاصمهم فاستوقفهم لكيز وقال :

— « قفوا قليلاً يا أبنائي فصدري يعتلج بكلمة يريد أن يفصح عنها اللسان . »

فتطلعوا كلهم إليه صامتين ذاهلين كأنّ على رؤوسهم الطير فاستأنف لكيز حديثه قائلاً :

— « اسمحوا لي وأنا أكبركم سنّاً . . . » فقاطعه البرّاق وقال :

— « ومقاماً وجلالاً يا سيد العشيرة . » فقال لكيز :

ــ « حيّيت أيها البطل النبيل . . . إنك تدعوني بسيد العشيرة في حين أنك أنت سيّدها وحامي ذمارها فقد سوّدتك عليها وألقت إليك مقاليدها فرعايتك إياي إنما هي بدوات ما تنطوي عليه جوانحك من نبالة ومكرمة . » فقال البرّاق :

ــ « أنت يا عمّاه فخرنا وملاذنا فهيهات تنسى العشيرة مأثراتك وجميل فعالك . » فقال لكيز :

ــ « دعنا من الحديث عن الماضي ولنأخذ بيومنا الحاضر وغدنا المقبل . . . قلت إني أكبركم سنّاً فباسم الحضّر والغيّاب أرجو منك يا ولدي أن تصفح عني فيما أسلفت إليك . . . »

فحال البرّاق بينه وبين تتمّة الكلام وقال :

ــ « عفواً يا عمّاه فأنت فوق مبسوط العذر . » فقال لكيز :

ــ « كلاّ يا ولدي . . . إن ضميري يخزني وخزات الإبر فقد كنتُ سبباً في شقاء ليلى وسبيها وتعريضها للنوازل الدُّهْم . وكنت سبباً في تمزيق نياط قلبك وإن أخفيتَ ذلك عن أعين الناس وانطويت به على نفسك كبراً واستعلاءً . . . » فعاد البرّاق إلى مقاطعته وهو يقول :

ــ « حاشاي أن أستكبر عليك يا عمّاه فإنك لم تفعل إلا ما أيقنت أنه الخير . . . » فقال لكيز :

ــ « هو ذاك يا ولدي . . . فقد اعتقدت أني أسعد ابنتي

وعشيرتي فضلا عن أن خور العزم وخلّة الحياء ألجما لساني فما استطعت أن أقول : لا . لأمير اليمن عمرو بن ذي صهبان . »

فبادر كليب يقول :

ــ « وفيمَ هذا كله يا سيد لكيز وعلام تنبش أجداث الماضي فما فينا إلا لك راحم وعذير . . . » فقال لكيز :

ــ « شكراً لك يا كليب . . . إن صدري يرزح تحت أثقال الهموم فخلّوني أنفّس عني لعلّي أنجو من تبكيت الضمير . . . »

والتفت ثانية إلى البرّاق وقال :

ــ « وكنتُ سبباً كذلك في موت أخيك الظليل يوم عدت من البحرين وتجاهلت إساءتي وكررت على قضاعة وطي تحمي الحمى وتردّ غارات الخصوم وتنقذ الرهائن وكانت ليلى في السبايا . ولكن شاء سوء الطالع أن يسقط أخوك الظليل في ميدان الشرف وهو يحارب معك ومع أخوتاك جنباً إلى جنب . . . »

وسكت لكيز قليلاً يتنفّس ويستجمع قواه وأطرق البرّاق حزيناً كئيباً فاستأنف لكيز الكلام وقال :

ــ « وشاء كذلك سوء الطالع اليوم أن تفقد أخاك غرسان فيمن فقدنا من رجال فقد صُرع هو أيضاً في ساحة المجد مدافعاً عن شرف ليلى وشرف العشيرة . . . » فقال البرّاق :

ـ « واحرّ قلباه على غرسان . . . لقد نكأ موته جراح قلبي كلها . . . » فتابع لكيز كلامه وقال :

ـ « لقد كنتُ السبب في هذه النكبات وما أنتجته من آلام وأحزان وقطيعة وهذه الحرب التي أخوضها معكم جميعاً كنت أنا أيضاً السبب فيها ففي عنقي دماء القتلى من أبناء العشيرة فالدية فيهم فادحة والكفّارة عنهم ثقيلة ولست أقوى على شيء من هذه ولا من تلك سوى أن أتقدّم الصفوف وقد فعلت وأكفّر بسفك دمي عن ذنوبي وآثامي . . . »

فسُمع في الحضور نشيج خافت انبعث من صدور أبنائه الثلاثة الذين كانوا يستمعون إليه حابسين زفراتهم في صدورهم حتى فاضت وانطلقت فنظر لكيز إليهم نظرة كلها عطف وحنان وقال :

ـ « لا تبكوا يا أبنائي فما خلق الدمع للرجال . . . »

ولم يستطع أن يتمّ كلامه فقد غلبته الدمعة المحبوسة فبكى هو أيضاً . ثم كفكف عبراته وخاطب البرّاق قائلاً :

ـ « سأرتخص نفسي وأبيعها بيع السماح كفّارةً وقرباناً فإذا أدركني الموت فوصيّتي إليك يا برّاق :

أن تصفح عني وتستصفح كل من أسأت إليه غير عامد .

أن تأخذ كل ما أملك من سلاح وإبل وجياد ومعزى

وتوزعه على أسر العشيرة المفجوعة بأبنائها في هذه الحرب .

أن . . . »

وتوقف قليلاً قبل أن يعرب عن الأمر الثالث الذي يوصي به ولكنه تمالك نفسه وقال :

— « أن تتزوج ليلى فقد أزوجتُكها وهؤلاء الحضور شهود عليّ ولسوف تختلج روحي سعيدة مغتبطة وأنا تحت التراب بهذا الزواج . . . »

تضاربت العواطف في صدر البرّاق لدى سماعه هذه البشرى فكان نهباً مقسّما بين سعادة طارئة ولكنها معلقة بأذيال الأوهام والأحلام وبين حزن على أخيه غرسان وعلى القتلى من بني جلدته وبين يأس قاتل يفتّ في عضده فدون ليلى جيوش و وحوش . فبقي مفكراً ساهماً فحمل لكيز سكوته على غير محمله وقال :

— « لست أدري يا ابن أخي أغيّرت الحوادث والأيام قلبك وعاطفتك أم لا . فإن كنت لا تزال على حبك لليلى وشغفك بها فإنه يسعدني ويسعدها ويسعد أخوتها وعشيرتها جمعاء أن تكون لك وأن تكون لها . . . »

فسارع البرّاق إلى عمه لكيز يتبادل وإياه القبلات وتوالى عليه الحضور يقبّلونه ويهنّئونه وكأنما البشرى قد نفخت فيه

روحاً جديدة وعزماً جديداً فأقبل على عمه لكيز يقول :

ــ « نعمْت البشرى يا عمّاه تزفّها إليّ ونعمت هذه الرعاية تغمرني بها فعش ممتعاً بالحياة لتراني وليلى زوجين هانئين فوحقّ من وهب لي الحياة لأخوضنّ إلى ليلى بحراً من الدماء واللهب وأغيالاً من السيوف والقنا وسواء عشت أم غالني الردى فحسبي أن تنعم روحي برجوع ليلى إلى الديار مصونة عزيزة . »

ثم وجّه الكلام إلى رؤساء الألوية فقال :

ــ « هيّا أيها الأحباب والأخوان إلى أمكنتكم من الجبال والمعاقل وابقوا فيها ولو أياماً وأشهراً حتّى ترد لكم أنبائي وتتهيّأ لنا أسباب النصر. فإذا تعقّبكم جيش فارس فأذيقوه الوبال من حيث لا يراكم. وإن طغى عليكم برجاله وعتاده فأخلوا له الأرض وانسحبوا بغنائمكم إلى أوائل حدوده فلا بدّ أن ننتصر عليه ولو بعد حين فالنصر حليف الحق والعزة والشرف . » فقال كليب :

ــ « وماذا أنت فاعل يا برّاق . » فقال البرّاق :

ــ « سأعود إلى ساحة القتال وأغافل العسس والجند فأتزوّد من أخي غرسان الممدّد في العراء بالنظرة الأخيرة . » فقال أخواه :

ــ « نذهب معك . » فقال البرّاق :

– « ما كنت لأحرمكما هذا الوداع غير أن جلبة جياد ثلاثة وصليل سلاحنا معاً سيلفت إلينا الأسماع والأبصار . . . فسيروا جميعاً على بركة الهدى وليجمع كلٌّ رجاله وليتوغّل بهم حيث أشرت متجنّبين مزالق الهلاك وسألحق بكم طال الزمن أم قصر . . . »

ولم ينتظر البرّاق حتّى يسمع الجواب بل وثب إلى صهوة جواده ونزل به راجعاً إلى ساحة المعتْرك سالكاً إليها ملتوي الدروب التي تخفيه عن الأنظار . وكان في أثناء سيره تطرق مسمعه أصداء سنابك الخيول الضاربة في مناكب الجبال وأصداء أصوات الفرسان تتنادى وتتداعى فعلم أن قومه يتحركون إلى مواقعهم الجديدة حتّى إذا ابتعد في مسيره تلاشت الأصداء فقدّر أنهم بلغوا مكامنهم الأمينة .

ولم يفتأ البرّاق وهو راجع إلى أخيه القتيل يفكّر في هذا الجيش الفارسي الذي فاجأهم بخيله ورَجْله وفيَلته وآلاته فأضاع عليهم فرصة الانقضاض على العاصمة وإنقاذ ليلى من مخالب برد بن طريح أو من أنياب أمير فارس . ولقد كان وثق بالنصر كل الوثوق لمّا عرف من أهل « كرخاء » وهي أول مدينة فارسية دخلوها واستولوا عليها أن جيش فارس كله مشغول بقتال الهياطلة يتلقّى منهم الضربات القاسية والهزائم المنكرة . ولكن فات البرّاق

أن يعرف بعد ذلك أن الفرس والهياطلة قد استتبّ بينهم الصلح والسلام على جزية يؤدّيها الفرس كل عام وعلى شروط أخرى وعدوا بتحقيقها عن يد صاغرين وأن الملك رجع إلى عاصمته ذليلاً منكسراً يحرق الأرّم غيظاً وأنه عندما علم بغارة العرب ظن الروم وحلفاءهم الغساسنة قد تألبوا عليه وهاجموا بلاده فأمر أن يخرج الجيش برمته إلى لقائهم والتنكيل بهم ليعوّض عن الهزائم التي مُني بها في أرض الهياطلة . فلمّا عرف أنها غارة بعض البدو الرحّل من العرب وأنهم أدّبوا شرّ تأديب أمر بالجيش فعاد إلى قواعده .

لم يعلم البرّاق وأنّى له أن يعلم بكل هذا فلو أحاط به لما دهش عندوصوله إلى ساحةالمعركة حذراً مترقّباً من أن يراها قاعاً صفصفاً إلا من جثث القتلى وأشلائهم لا جند فيها ولا عتاد فحدّث نفسه قائلاً : أية مفاجأة جديدة يعدّها هؤلاء الزّبانية . . .

١٠

غادر برد بن طريح منزله بعد أن لقي من عناد ليلى ما لقي فأخذ يطوف بأزقّة المدينة زائغ البصر لا تقع عينه إلا على أشباح وصور ولا يدري ماذا يكون موقفه من الأمير إذا أبتْ ليلى أن تسير إليه راضية مستسلمة .

وشرع وهو سائر على غير هدى يفكر في وسيلة يتخذها أو حيلة يستنبطها ليدرك بها من ليلى ثأره ومن الأمير عطفه ورضاه فما فتح عليه التفكير بشيء يرتاح له ويطمئنّ إليه . وذهبت به مطارح الفكر إلى استعمال القسوة ثانيةً وتصفيد أسيرته بالأغلال وإعمال السياط فيها ولكنه راجع نفسه وعرف أن القسوة لن تنيله مأربه ولعلها تقضي عليها وتزهق روحها فالموت لا يخيف فتاة مثل ليلى وربما آثرت الموت فراراً مما أعدّه لها من انتقام شنيع فمن خطل الرأي أن يمهّد لها سبيل الموت فتخلع ثوب الحياة وهي نقية الإزار مصونة العفاف .

وظل يطيل التدبر فلا يجد ثغرة ينفذ منها إلى رأي صائب حتى أدركه المساء وحان موعد وفائه بعهد الأمير فقرّ قراره أن يعود إلى ليلى لعل معاودة الحديث معها يفتح له مغلق الآراء . . .

واستدار على عقبيه وعاد يذرع الأزقّة بخطوات واسعة راجعاً إلى داره فدخلها وتوجّه توّاً إلى ليلى فرآها على الحال التي تركها عليها فصاح ينادي زوجته بصوت زلزلت له أركان الدار فهرعت إليه فقال لها وهو يشير إلى ليلى :

ـ « لماذا أبطأت في تزيينها وتجميلها وإلباسها فاخر الحلىّ والثياب . » فقالت زوجته مضطربة :

ـ « لقد . . . »

وقُرع الباب في تلك اللحظة فخفّت تفتحه ناجيةً من الجواب متوقعة أن يكون الفرج على يد هذا القادم إليهم فقد كانت القينة أخبرتها أن أخا زوجها بلغ منه مصاب ليلى مبلغه فوعد بركوب كل صعب في سبيلها .

ولشدّ ما خفق فؤادها فرحاً ولمعت عيناها طرباً حين رأت أخا زوجها ورئيس الشرطة يدخلان الدار ويطالعانها بالتحية . فرحّبت بهما في غبطة ظاهرة وخرج إليهما زوجها برد بادي الدهشة من زورة أخيه مصحوباً برئيس الشرطة أو من مجيء رئيس الشرطة مصحوباً بأخيه. وحاول فكره أن يتكشّف الدواعي والأسباب فما عثر على سبب يهدّئ ثائرة أعصابه فتصنّع السرور بتلك الزورة وشارك زوجته في الحفاوة بهما والترحاب ثم قال :

ــ « أهلاً برئيس شرطتنا الباسل وبأخي جبير . إن مقدمكما معاً يغمرني بالفرحة الشاملة وإن يكن يثير في نفسي الفضول . لعلكما تقابلتما عند الباب . » فقال رئيس الشرطة :

ــ « كلاّ يا سيدي برد . إننا جئنا معاً من قصر الملك فقد أمرنا مولانا الأمير بلاش أن نصطحب فتاة عندك تسمّى ليلى . »

فظنّ برد أن الأمير استبطأ ليلى فأرسل يطلبها فماذا تكون الحال لو أبتْ أن تسير إليه . أيحملها رئيس الشرطة إلى القصر عنوةً وقسراً فماذا يكون شأنه هو والأمير بعد إذ زعم له أن ليلى ستأتيه طيّعة راضية. ولكن ما شأن أخيه والمسألة . نعم إنه لذو مكانة أثيرة عند الأمير غير أنه ليس من جلسائه في اللهو والأنس ولا ممن يعدّون له مجالس العبث والشراب فلا بدّ أن يكون وراء ذلك سرّ من الأسرار . فقال يجيب رئيس الشرطة :

ــ « كنت عازماً أن أصحبها الساعة إلى قصر مولانا . . . »

وأحبّ برد أن ينفض يده من إبائها لو أبتْ فلا يظهر لدى الأمير في مظهر الكاذب المنافق فقال :

ــ « ولكنني أخشى أن يرهبها زيّك العسكري يا سيدي فترفض الإذعان لأمر مولانا الأمير في حين أعلم أنه ينتظرها في القصر . » فقال أخوه جبير :

ــ « إن مولانا الأمير لا ينتظرها فلن تنزل في عداد جواريه

وإمائه وإنما أمر أن تخصص بها دار أنيقة تُجرى عليها المكارم فيها حتى يبتّ في أمر عودتها إلى أهلها وديارها فالبزّة العسكرية لن تخيفها بل ستضمن لها الطمأنينة والإجلال . »

فنظر برد إلى أخيه نظرة تتّقد بالشرر وأمسك عن أن يغلظ له القول في وجود رئيس الشرطة فضلاً عن أنه أخوه الأكبر وأنه قد يكون بريئاً مما أحاطه به من ريبة ومظنّة . وعلل نفسه بأن ترفض ليلى الامتثال لرغبة الأمير فيستطيع غداً أن يتبيّن علة إخفاق مسعاه ويعرف من كال له هذه الضربة القاصمة ويعاود إغراء الأمير بليلى فلا تفلت الفريسة .

وسرعان ما اضمحلت آماله عندما رأى ليلى تندفع من حجرتها إلى حيث كان رئيس الشرطة ومَنْ حوله وتقول له :

— « إني رهن إشارتك يا سيدي وطوع أمر الأمير فقد سمعت حديثكم وعرفت أنك جئت تصحبني إلى دار أنيقة تفضّل أميركم فخصّصها لي ريثما ينظر في عودتي إلى أهلي ودياري فخذني معك وارفع جميل شكري للأمير وقل له إن ليلى بنت لكيز لن تنسى له هذه اليد البيضاء ما عاشت . »

فانحنى رئيس الشرطة إجلالاً لها ومضى بها يُنزلها في بيت الضيافة على مرأى من برد الذاهل وجبير المغتبط وزوجة برد وقينتها وقد كادتا تطيران من الفرح ثم أسرعتا في التواري لتتجنّبا

غضب ربّ الدار .

وكان برد يغلي صدره غليان المِرْجل ولكنه كان كاظماً غيظه ضابطاً أعصابه يجتهد في أن لا تبدر منه بادرة تسيء إلى رئيس الشرطة فينقلها إلى الأمير مكبرّة مضخّمة فتعود عليه بالخسار والوبال . وما عتّم أن رأى رئيس الشرطة قد خرج بالوديعة وأغلق باب الدار وراءه حتّى انفجر المِرْجل الذي يغلي في صدره وصاح في أخيه متناسياً ما لأخيه عليه من حرمة وإجلال وقال :

— « ما معنى هذا يا جبير . أتكون عوناً لرئيس الشرطة عليّ . أتقف حجر عثرة في سبيلي . أتهدم بيدك في لحظة ما فكرت فيه عاماً كاملاً وبنيته في أشهر طوال . » فقال جبير متّئداً رزيناً :

— « هوّن عليك يا برد فما كنتُ عوناً لرئيس الشرطة عليك فإنما صحبته إلى دارك لأرقب كيف ينفّذ أمر الأمير ولأدخل على قلب الأسيرة الرضى والاطمئنان . » فقال برد محنقاً :

— « وما شأنك أنت والأسيرة . أأنت الذي اختطفتها أم أنا . أأنت الذي وعد بها الأمير أم أنا . » فقال جبير في لهجة خطيرة :

— « ما كنت أنا لأرتكب مثل هذه الحماقة والسفالة . علمتُ بما فعلتَ فأردت أن أنقذك من التردّي في مهاوي الخسّة والنذالة فرجوت الأمير أن يرعى هذه الأسيرة ويجنّبها الزلل ويعيدها إلى أهلها وديارها ليكسب فيها الذكر الطيب وحسن الأحدوثة . . . » فصرخ برد في وجهه وقال :

— « إذن أنت الذي عرقلت مساعيّ . أنت أخي الأكبر تطعنني في الصميم . وتضربني من وراء ستار . وتحقّرني لدى الأمير . ولكن أنا أعرف كيف أغريه بها وكيف أثنيه عن كرامته . » فقال جبير :

— « لئن طعنتك طعنة مضمونة الشفاء لقد نجّيتك من طعنات الضمير فهذه لا شفاء منها . أيعميك الحقد حتى ينسيك دمك العربي والنخوة العربية . أليست ليلى بنت لكيز . أليس ربيعة أخاً لإياد فإن كنا وجدنا أسباب الرزق هيّنة سمحة في بلاد فارس أفننسى أرومتنا العربية فنكيد لأبناء العرب وبناتهم ونعرّضهم للخطر والمذلة . » فقال برد :

— « البادي أظلم . لكأنك تناسيت احتقار لكيز إياي يوم خطبت إليه ابنته ليلى فردّني خائباً . » فقال جبير :

— « وماذا عليه من حرج . أليس الآباء أحراراً في اختيار أصهارهم . أليس من عادات العرب أن يشاور الآباء بناتهم

إذا ما تقدّم لهنّ الخطّاب . فهَبْهُ شاورها فما رضيتْ بك عروساً . » فقال برد :

— « هذا ما حدث . ولذلك اتخذتها هدفاً لثأري وانتقامي فقد آثرتْ عليّ يومذاك ابن عمها البرّاق . » فقال جبير :

— « وهل يليق بالرجال أن ينتقموا من النساء . إن كنت ذا تِرَة فاشفها من البرّاق نفسه في نزال شريف . » فقال برد :

— « وبيتِ النار لأقطعنه إرْباً إرْباً لو رأيته في يوم من الأيام . » فقال جبير :

— « أتحلف ببيت النار وتعرض عن اللات والعزّى . »

فقال برد :

— « الناس على دين ملوكهم . » فقال جبير :

— « دَعْك يا برد من حزازات الصدور وعدْ إلى سجاياك العربية فنحن العرب طلاّب ثارات ولكن في غير النقائص والدنايا ولا تحاول أن تتخلّق بغير أخلاقك فما أنت من يجحد المروءة وينكر الإباء . » فقال برد :

— « وما أنا من ينام على الضيم . » فقال جبير وقد نهض يهمّ بالانصراف :

— « نعمت مساءً يا برد . نم هادئاً ساكناً فالليل مجلبة

لصواب الرأي وهدوء البال . »

ومضى تاركاً أخاه يتقلّب على أحرّ من جمر الغضى وتتنازعه عوامل الخير والشر .

وكانت ليلى في تلك الساعة قد نزلت بدار الضيافة فبادر إليها العبيد والإماء يبالغون في إكرامها ويتوفّرون على خدمتها وقضاء حاجاتها فلا تكاد تفكر في أمر وتفتح شفتيها معربةً عنه حتى تراه قد قُضي لها على أسرع وجه وأكمله .

كانت هذه الرعاية البالغة حقيقة أن تُدخل على نفسها بواعث الاطمئنان ولكنها كانت من أمرها في حيرة وتساؤل . فما معنى هذا التحول من الرغبة فيها إلى الرغبة عنها. ومن أن تُسلك في نظام الإماء والحظيّات إلى أن تُفرد لها الدار الجميلة متوافرةً فيها كل أسباب الدعة والعيش الخفيض . أترى الأمير كان أحذق وأذكى وأعلم باكتساب قلوب النساء فاستهلّ معرفته بها هذا الاستهلال البارع ليصل منه إلى غرضه الخفيّ . أتراها أخطأت في فهم الكلام الذي سمعته من رئيس الشرطة عندما كان يحدّث برداً وأخاه . نعم إنه كان يتكلم بعربية تخالطها لوثة الأعجمي ولكنه أفصح بها عن رغبة الأمير في نقلها إلى دار للضيافة ريثما يدبّر أمر عودتها إلى أهلها وديارها . وهذا هو الذي حملها على أن تبرز لرئيس الشرطة وتبدي له خضوعها

وطاعتها لما أشار به الأمير . بل إنها وازنت بين بقائها في دار برد عرضة للقسوة والغلظة وبين أن تكون تحت رحمة الأمير ومجهول أهوائه فآثرت الثانية آملةً أن تلمس من قلبه وتر الشفقة فيقضي على ما تعانيه من أسقام وآلام .

ومرّت على ليلى في دار الضيافة حقبة من الزمن كادت روحها فيها تبلغ التراقي وكادت تُجنّ مما يحيط بها من ألغاز وأسرار . فمن كرم ورعاية فضفاضة الحواشي والذيول إلى حراسة عليها ضيّقة الخناق فما كان يسمح لها بالخروج من الدار ولا كان يزورها فيها إلا الكاهن الأكبر وإلا امرأة عربية تسمّى الرقشاء زوجة وزير من وزراء الملك يدعى صريم الإيادي .

وثقت ليلى في إقامتها بتلك الدار أن الأمير لا يريد بها شرًّا فما بدر منه في زوراته إياها ما يدل على شيء من نيّاته السيئة فعلامَ إذن يحبسها في ذلك القفص الجميل . سؤال ما وجدت له جواباً قط ولا أجابها عنه الأمير ولا استطاعت الرقشاء أن تجيبها عنه على أنها زوجة وزير وصديقة طيبة القلب مشفقة عليها راثية لحالها .

وكانت الرقشاء قد بلغتها قصة ليلى فثارت فيها عوامل الرأفة والشفقة بإحدى بنات جنسها فما زالت تجدّ وتسعى وتساعدها منزلتها في الدولة حتى سمح لها بأن تزور الأسيرة كلما شاءت .

فأجفلت ليلى منها في بدء الأمر ثم رأت فيها الجليس الأنيس فأفضت إليها بمكنون صدرها وطلبت إليها أن تعاونها على النجاة من أسرها والسماح لها بالعودة إلى دارها . فعجزت الرقشاء وعجز زوجها عن تحقيق ذلك الرجاء وبقيت ليلى رهينة أمير فارس لا يعرف سرّ رهنها إلا الأمير والكاهن الأكبر .

وكان الكاهن الأكبر يزورها الفينة بعد الفينة فهو الرجل الأول في المملكة تفتح له الأبواب الموصدة ولا يجرؤ أحد أن يعارضه في أمر ولا أن يوجّه إليه سؤالاً . وكان يوهم الأمير أن زيارته لليلى فرض واجب ليعرف ما تقوله فيها الكواكب والنجوم .

ولما زار ليلى لأول مرة ارتاحت لزورته وطمعت بأن تظفر بالفرج على يديه ولكن شدّ ما خاب أملها فيه عندما بدا لها في زوراته الأخيرة شرّيراً أثيما يخفي تحت مسوح الكاهن روحاً خبيثة فقد أخذ يراودها عن نفسها ويمنّيها بالأماني الكبار وبريق الشهوة يلتمع في عينيه .

وبينا هي في خدرها ذات صباح إذ ارتعدت فرائصها ذعراً لما رأت الكاهن الأكبر يفتح عليها باب الخدر ويدخل منه ويبتدرها بالتحية قائلاً :

ـ « عمي صباحاً يا ليلى . »

فهرعت ليلى إلى مئزر تلفّحت به وقالت وهي ترتجف :

— « عم صباحاً يا سيدي الكاهن . » فقال متودداً :

— « ما بالك يا ليلى تنفرين مني وتضطربين من لقائي وأنا لا أحمل لك في قلبي إلا المودة والحب . » فقالت وقد سكن جأشها للهجته المتوددة :

— « وأنا أكنّ لك يا سيدي الكاهن كل تجلة غير أني أصبحت بَرمة بالحياة يائسةً منها فعلامَ تحبسونني لديكم . هلاّ أفرجتم عني وأطلقتم سراحي . » فقال :

— « هلاّ رحمت هذا القلب المعذّب الذي نزلت منه في الصميم فأصبح لا ينبض إلا بذكرك ولا يخفق إلا بحبك . »

فسكتت ليلى ولم تجب فلمع بريق الأمل في عيني الكاهن الأكبر وقال :

— « كلمة مني تحلّ لك الموثق وتفتح المغلق وتطير بك فوق أجنحة الهناءة والسعادة . » وبقيت ليلى ملتزمة الصمت فقال يزيد في إغرائه :

— « إذا أجبت نداء فؤادي غمرتك بسعادة لا تحلمين بها ففي مقدوري أن أزوّجك من أمير فارس فتصبحي الملكة يوم يتسنّم العرش . » فقالت له في ازدراء واحتقار :

— « تريدني أن أكون حليلة الأمير وخليلة الكاهن الأكبر .

أي شيطان رجيم أنت أيها الرجل . » فقال :

ـ « إن النجوم والكواكب هي التي عقدت في قلبي حبك وغرامك وهي التي قادتك إليّ وقادتني إليك . ومن يدري فلعلّ لها غاية تريد أن تحققها من هذا الحب الذي أوقدت لظاه في فؤادي . إني أجهل اليوم تلك الغاية وربما أوحت إليّ بها في مستقبل الأيام فبدلَ أن تعدّي نفسك سعيدة بإيثار الكواكب إياك ونعمتها عليك بأن جعلتك حبيبة الكاهن الأكبر أراك تتدللين وتتمنّعين . فكّري قليلاً في غضب النجوم وعصيانك أوامرها وتمرّدك على وحيها وإلهامها . » ودّت ليلى لو تهجم على هذا الوغد السافل الذي يمتهن عقلها وتنشب أظافرها في عنقه فتمالكت نفسها وقالت :

ـ « لستُ من عبدة النار ولا من أتباع الكواكب والنجوم لأكون تحت سلطانها وفي متناول نعمتها أو نقمتها . ولستُ كذلك من عبدة الأوثان والأصنام فالله هداني إلى دينه القويم على يد راهب نصراني هو مثال للفضيلة والخلق الكريم . فلو كان لي أن أحكم على الأديان بصفات رجالها وكهنتها وبما عرفته في ذلك الراهب من نبل وورع واستقامة وما لمسته فيك من دناءة وخسّة ونفاق لقلت إن دين المسيح بن مريم دين السموّ والسلام ودين المجوس دين الرياء والفحشاء فإنك المثال المجسّم للكبائر والرذائل. »

لم تدر ليلى كيف أفلت منها زمام الصبر والموادعة فهاجمت الكاهن الأكبر هذا الهجوم العنيف فكانت كالماء الذي طال إسخانه حتى انفجرت به القِدْر ففاض وسال . ولقد توقعت أن يهيج كلامها ذلك الثور الرابض الرابص فصحّ ما توقعت ورأت الكاهن الأكبر ينتفض انتفاضة الذئب وينهض من مكانه ويقترب منها مادّاً ذراعيه وقد جحظت عيناه وحلك وجهه وارتجفت لحيته وهي لا تدري أيريد أن يضمّها إلى صدره أم يعصر رقبتها بيديه الأثيمتين فوثبت من مكانها وجرت تتدارى وراء مقعد كبير وهي تقول :

— « حذار أيها الوحش فلو خطوت خطوة واحدة إليّ ملأت هذه الدار صياحاً ليهرع إليّ العبيد والإماء والحرّاس ويروا في أي حمأة يتمرّغ كاهنهم الأكبر . »

لم يحفل الكاهن الأكبر بوعيدها واستمرّ مندفعاً إليها فشرعت ليلى تصيح وتصرخ قائلة : المعونة . المعونة . إليّ . إليّ . ووقعت يدها على المكحلة وكانت قريبة منها فقذفته بها فصدّها بيده الغليظة فوقعت على الأرض يسيل منها الكحل على الطنافس النفيسة . وأصبح الكاهن على قيد سنان رمح من ليلى فاستجمعت قواها ورمته بمقعد كبير كان أمامها وهي لا تألو تملأ الغرفة صياحاً . فشاء أن يتحاشاه فعلقت أردانه به وفقد

توازنه فتعثّر وسقط وهو يخور خوار الثور الذبيح . فطارت ليلى إلى الباب وكان نفرٌ من الخدم والحرّاس قد خفّوا إلى الحجرة على صياح ليلى واستغاثتها فهالهم أن يروا الكاهن الأكبر منطرحاً إلى الأرض يحاول النهوض فسارعوا إليه وأنهضوه وانكبّوا على يديه يلثمونها وعلى ردائه يتمسّحون به وهم يرجون أن لا يكون قد أصيب بمكروه فقال لهم :

ـــ « جزتكم الكواكب خير الجزاء يا أبنائي. لست أدري كيف تعثرت بهذا المقعد وأنا متوجه إلى الباب منصرف من زيارة ضيفة الأمير بعد أن اطمأننت عليها لأن النجوم كانت قد أوعزت إليّ أن أزورها في هذا الصباح وأتفقّد حالها وأعنى براحتها فقد تعدّها لأمر عظيم . »

أدركت ليلى أن جأرها بالشكوى من هذا الوغد الزنيم ونشر ما انطوت عليه نفسه من خداع وما ثَمّ سيذهب صرخة في واد فمكانة الرجل من قلوب هؤلاء السّذّج البُلْه أو من هؤلاء الأتقياء أهل الوَرَع والصلاح ستبعد عنه كل شبهة وريبة وتتّهمها بالخبل والهذيان فسكتت على مضَض ولا سيما أنه عرف كيف يعلّل سقطته فأرادت أن تجاريه في التعمية حتى ترى ماذا يكون من شأنه فيما بعد وأن تحتطب من حطبه فتقدمت منه وهي تقول :

— « عفواً يا سيّدي الكاهن الأكبر . لعلّ سيدي لم يصب بأذى ولا سوء . » فقال لها بعد أن استدار إليها ورماها بنظرة أذكى من الضرام . :

— « كلاّ يا ابنتي فالعثْرة لم تكن ذات بال . ولقد شغلتني الصلاة والمناجاة عن أن أتفادى في مسيري هذا المقعد الضخم . أستودعك النجوم . »

ومشى إلى الباب منصرفاً ففسح الخدم والحرّاس له في الطريق وانحنوا له إجلالاً وقبل أن يغادر عتبة الحجرة التفت إلى ليلى وقال وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى :

— « ثقي يا ابنتي أني سأنفذ كل ما توحيه إليّ النجوم في شأنك فلن أنساك ولن أنسى هذا اللقاء الجميل الذي استقبلتني به اليوم فلسوف أذكره واستمدّ منه طيب الذكر عنك عند الأمير . »

فمضى وشيّعته ليلى متصنّعة الإكرام والإجلال وهي تحسب ألف حساب لهذا الإبليس اللعين .

وما إن تعود إلى مخدعها وتخلو إلى نفسها فيه حتّى ترتمي على إحدى الأرائك خائرة القوى واهنة العزم وتطلق لعينيها عنان الدموع . ثم تنهض مكفكفة عبراتها وتستوي جالسة على الأريكة تفكر في نكباتها الجسام .

وتثور نفسها على ما أحاق بها من ظلم الإنسان فتثب واقفة وتذرع الغرفة طولاً وعرضاً تتقاذفها عواصف نفسها المحتدمة الثائرة ثم يهدأ جأشها قليلاً وتتجه إلى ربها تناجيه وتستمدّ منه المعونة في محنتها وتقول له :

« أيها الربّ الذي عبدته دون الأصنام والأوثان ودون النار والكواكب لماذا تتركني إلى أطماع الناس وأهوائهم . عرفتك القويّ القدير فهلاّ نصرتني . وعرفتك المنتقم الجبّار فهلاّ ثأرت لي . علّمني الراهب أن الفضيلة محبّبة إليك وأن أهلها مقرّبون منك فلماذا سمحت بأن تكون فضيلتي سبب عذابي وشقائي . ماذا جنيتُ وأي ذنب ارتكبتُ لأتقلب على سهام مسمومة من الخطوب والمحن . كنت العفيفة فصنت نفسي حتى عن أحبّ الناس إليّ . وكنت الطيّعة فأذعنت لمشيئة أبي على ما حمّلتني إياه من أثقال فوادح . وكنت الوفيّة فما لقيت في الحياة إلا الغدر والخيانة أفيرضيك أن تخونني القوى فأزلّ وتنزلق قدمي في هوة الرذيلة لأنجو مما أعاني من تبريح وسقام . اللهم رحمتك فلم يبق في قوس الصبر منزع . . . »

وتسكت قليلاً ثم ينصرف ذهنها إلى أهلها وعشيرتها فتناجي نفسها قائلة :

« عجباً لأهلي وقبيلتي والعرب أجمع كيف ينامون على

الضيم والأذى ولا يهبّون إلى فداء ابنتهم وصون عرضهم وكرامتهم . عجباً للبرّاق وهو ربّ النجدة والنخوة والساعد القوي والسيف البتّار كيف لم يجمع الجموع ويستنفر العشائر والقبائل ويقدم وهو في طليعتها لينقذ ابنة عمه المرهون شرفه بشرفها . هبْيِه سلاني وسلا حبي وشغل قلبه بعروس سواي أفلست ابنة عمه وبنت عشيرته . وأخوالي وأخوتي ما خطبهم . إن كان أبي قد كلّ ساعده دون امتشاق الحسام فإنهم كلهم فتيان أشدّاء يجول دم الشباب في عروقهم وإنهم كلهم أُباة الضيم . ففيم سكوتهم وعلام تقاعسهم . »

وبقيت ليلى على مثل هذا النّجاء حتى خارت قواها ويئست من أن يتداركها العرب بالفدية والإنقاذ واستقر في ذهنها أنهم غير فاعلين فقد مرّ على أسرها واختطافها ردح من الزمن كان يكفي لوصولهم إلى أرض فارس واقتحام المعاقل والحصون فيها ولم تعرف أن البراق ورجاله كانوا في ذلك اليوم قد اجتازوا الحدود إلى مدينة « كرخاء » يُعملون في رقاب أهلها السيوف والرماح فارتمت إلى الأريكة وعادت إلى النحيب والبكاء . . .

١١

ظلّ البرّاق بعد وصوله إلى ميدان القتال يطيل النظر في كل بطحاء وحنيّة ويرقب الشعاب واللوى ويتوقع أن يبرز الفرس على حين غرّة من حيث لا يعلم . ولما طال انتظاره ولم يحسّ بحركة ولا نأمة إلا أصوات الجوارح وهي تنقضّ على الجثث أيقن أن الميدان خالٍ من الأحياء والمقاتلة فترجّل عن جواده وربط أرسانه إلى جذع شجرة وأخذ يمشي في تلك الساحة الرهيبة ويتفقّد القتلى باحثاً فيهم عن أخيه غرسان حتى لقيه مكبوباً على وجهه وقد جمدالدم على جراحاته ولقي إلى جانبه سيفه الطويل مخضّباً بالدماء يشهد له بالشجاعة والبطولة . فانحنى عليه يقبّله ثم حمله وسار به إلى جواده فركبه ومضى يضرب في الفجاج والحقول ملتمساً بعض مشارع المياه .

وما برح سائراً على غير هدى مرخياً لجواده العنان حتى لقي جدول نهر في غيْضة كثيفة الشجر قامت في وسطها دار صغيرة ولاح له أن لا ديّار فيها ولا نافخ نار ثم قال في نفسه : وماذا لو كانت مزدحمة بالسكان من كل بطل صنديد فأنا لهم جميعاً .

فوقف جواده ونزل منه وحمل أخاه غرسان على كتفه وسار حتّى حاذى ضفة الجدول فوضع أخاه ناحية وأقبل عليه يغسله وينقيه من الدم والتراب ثم فرش له رداءً من ديباج كان معه فأضجعه عليه وغطاه برداء آخر من الخزّ ريثما يحتفر له قبراً يدفنه فيه .

ثم نزع البرّاق عن صدره الدرع ولأمة الحرب وخلع ملابسه ونزل الجدول يغتسل ويدلك جسمه وينتزع منه صدأ الدرع وعمد بعد ذلك إلى ملابسه فلبسها ورجع إلى أخيه وكشف عن وجهه طرف الرداء وجثا يقبّله ويبكيه ويندبه ويرثيه ويقول :

« بكيت لغرسان وحقّ لناظري ... بكاءُ قتيل الفرس إذ كان نائيا
بكيتُ على واري الزّناد فتى وغىً ... سريعٍ إلى الهيجاء إن كان عاديا
إذا ما علا نهداً وعرّض ذابلاً ... وقحّم بكريّاً وهزّ يمانيا
فأصبح مغتالاً بأرض قبيحةٍ ... عليها فتىً كالسيف فات المجاريا »

وأمسك البرّاق شجوه قليلاً ورجع لنفسه وعرضت بصيرته لما هو عليه من حال تاعسة فتابع إنشاده وقال :

« وقد أصبح البرّاق في دار غربةٍ ... وفارق إخواناً له ومواليا
حليف نوىً طاوي حشاً سافح دماً ... يرجّع عبراتٍ يهجن البواكيا »

ولام نفسه على أن ذكر حاله ونسي حال ليلى وما تقاسيه من ذلّ السبي وتمنّى أن تكون إلى جانبه تشاركه في البكاء على أخيه غرسان فمضى يقول :

« فليت لليلى نظرة فتعينني ... بها حججاً سبعاً بكيّ متواليا
ولو علمت ليلى وكانت خبيرة ... لجاءت تباري العاصفات الذواريا
أما خبرت ليلى الغداة بأنني ... أريد على غرسان عوناً مباكيا
لقد قطع الوصل الذي كان بيننا ... لكيزٌ بغارات تشيب النواصيا »

ثم حدّق في أخيه بنظرات ملؤها الأسى والحزن وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ فجلس إلى جانب أخيه ونصب ركبتيه ووضع جبهته عليهما ليخلد إلى شيء من الراحة .

وكان في الغَيْضة غلام شهد مجيء البرّاق فتدارى بشجرة ضخمة قريبة من المكان الذي نزل به البرّاق ورقب منها كل ما فعله حتى لقد سمع ندبه رثاءه فحزن لحزنه وبكى لبكائه . فلما رآه استلقى إلى ركبتيه خرج من مكمنه وأقبل إليه ماشياً متخفّف الحركة فطالعه وجه غرسان تخالط إشراقته صفرة الموت فثارت شجونه وأخذ ينتحب . فهبّ البرّاق واقفاً عند سماعه النحيب واستلّ حسامه ليدفع به شرّ العدوّ المغير فما وجد إلا ذلك الغلام ينشج ويذرف الدمع فأغمد

سيفه وقال له :

ـــ « ممن الغلام » فقال الغلام :

ـــ « من إياد يا سيّدي . » فقال البراق وقد لعن في سرّه قبيلة إياد وأبناءها :

ـــ « ومن مولاك . » فقال الغلام :

ـــ « رجل يقال له صريم الإيادي هو صاحب هذه الدار التي تراها وهذه الغياض المترامية حولها . » فقال البرّاق :

ـــ « وأين هو . » فقال الغلام :

ـــ « في المدينة يا سيّدي وموعده أن يأتينا اليوم هو وزوجته الرقشاء ليقضيا يوماً وليلة في هذا الريف الجميل ثم يعودا إلى المدينة فالرجل وزير من وزراء الملك ولست إخال الغارة التي شنها الفرس على العرب بمانعته عن المجيُ فقد انهزم العرب هزيمة منكرة وولوا الأدبار هاربين . »

فأهاج كلام الغلام حفيظة البرّاق فتماسك وقال :

ـــ « أتعرف رجلاً يسمي برداً الإيادي . » فقال الغلام :

ـــ « أعرفه كل المعرفة فكثيراً ما زار مولاي هنا وفي المدينة غير أن مولاي لا يحبّه ولا يأتمنه . وأنت يا سيّدي من تكون . ومن يكون هذا الفتى الجميل المسجّى على الأرض . »

فتنهد البرّاق وقال :

ـ « أنا رجل شقيّ تاعس يسمى البرّاق بن روحان وهذا أخي جنى عليه إقدامه وبسالته . » فقال الغلام :

ـ « لقد سمعت باسمك يا سيدي يذكره غير مرة برد الإيادي في زوراته لمولاي . » فقال البرّاق :

ـ « هل لك يا فتى أن تساعدني على حفر قبر لأخي أواريه فيه . » فقال الغلام :

ـ « أمرك مطاع يا سيّدي . انتظرني ريثما آتيك بفأس ومِعْوَل . . . ولكن . . . هاهوذا مولاي صريم وزوجته الرقشاء قد أقبلا . ها هي ذي قد ترجّلت ودخلت الدار . . . انظر إلى هؤلاء الفرسان الأربعة الذين أدركوه . إنهم حرّاسه الأشدّاء . . . اعذرني يا سيّدي فسوف يضرب عنقي إن لم يجدني في الدار . . . سآتيك بالفأس والمعول . »

وعدا الغلام عَدْو الظليم فوصل إلى مولاه وأفضى إليه بقصّة البرّاق فاهتزّ صريم سروراً واغتبط بحسن الطالع الذي دفع إليه البرّاق ومكّنه منه وبدأ يحلم برضي الملك عنه وإنعامه عليه حين يطرح البرّاق عند قدميه مصفّداً بالقيود أو يأتيه برأسه . فأمر غلامه بأن يدخل الدار والتفت إلى حرّاسه وأنهى إليهم بما يجول بخاطره ووعدهم بجزيل الجزاء إن هم استطاعوا أن يأسروا البرّاق أو يظفروا به حيّاً أو ميتاً . فامتشقوا سيوفهم

وانطلقوا إليه وهو في طليعتهم وكان البرّاق قد أوجس شرّاً من تهامس هؤلاء الفرسان فقفز إلى متن جواده وجرّد سيفه الطويل وانتظر ماذا يكون من شأن هؤلاء الناس . فلما رآهم قد هجموا عليه شاهرين السيوف استعدّ للنزال غير مكترث كثيراً لهم فقتال خمسة رجال أمر هين عليه وإنه ليقوّم نفسه بأكثر من هذا العدد . وما إن أصبحوا على مقربة منه حتى سمع رئيسهم وعرف أنه صريم الإيادي يقول له :

— « ألق بسلاحك يا برّاق واستسلم لآسريك نضمن لك الحياة حتى نسلمك للملك » فقال البرّاق :

— « وأيّ ملك تعني أيها الأعجميّ الجبان . » فقال صريم .

— « ملكنا فيروز . أما أدّبتكم الهزيمة الشنعاء التي أوقعها بكم جنده وقوّاده . » فقال البرّاق وقد بدأ الغضب يستولي عليه :

— « وما موقفك أنت أيها العبد الذليل من هذا . أما أدّبتك الخيانة والغدر فعرفت أيّ إثم اقترفت بتمرّغك عند أقدام سادتك الفرس . »

فغمز صريم بطن جواده واقتدى به حرّاسه وانقضّوا جميعاً على البرّاق فلقيهم البرّاق رابط الجأش ثابت الجنان

واقتصر على أن يتفادى ضربات السيوف ويتقيها ثم لكز جواده فطار به إلى ربوة عالية فلحق به الفرسان الخمسة وعلى حين غرّة ثني عنان فرسه وانقضّ على الحرّاس الأربعة واحداً واحداً فكال لهم ضربات قوية طرحتهم أرضاً يلعقون تراب الأرض . وعطف على صريم وسدّد إليه ضربة شديدة أطارت السيف من يده فذهل وارتعب ولم يصح من ذهوله إلا ورأس سيف البرّاق يداعب عنقه فأيقن بالهلاك فرفع يديه مستسلماً وقال مسترحماً :

— « عفوك يا برّاق فقد جئتك طامعاً ورجعت عنك نادماً وإنك لرجل بلا معين ولا نصير فامنن عليّ بالسلامة أكن لك عوناً . » فقال البرّاق بعد أن أبعد ذباب السيف عن عنق صريم :

— « وهبتُ لك الحياة فما صريم الإيادي طلبتي ولكن برد . . . » فقال صريم .

— « لأمكننّك منه يا سيدي فما هو من أكفائك . »

ثم قطع صريم للبرّاق العهد والميثاق على الوفاء والنصيحة . فترجّل الفارسان وتصافحا وعزّى صريم قلب البرّاق عن موت أخيه غرسان ودعا غلمانه وعبيده فعُنُوا بجراحات حرّاسه وأمرهم بحفر قبر لغرسان وانقلب إلى داره فجاء بالأكفان الفاخرة

فكفّنه بها وأتى بالطيب والغالية فطيّبه بهما ثم واروه في التراب وبكوا عليه جميعاً .

ونزل البرّاق في دار صريم عزيزاً مكرّماً محفوفاً بالترحاب فقدّم صريم له شهيّ الطعام ولذيذ الفاكهة ثم نادى صريم زوجته الرقشاء فأخبرها بمكرمة البرّاق في عنقه وقال لها قصّي على الضيف ما تعرفين من أمر ليلى ففعلت والبرّاق يستمع لها مضطرب القلب حتى إذا سكتت قليلاً قالت له :

— « هل من وصية توصيني بها إليها فإني عائدة إلى المدينة غداً . » فقال البرّاق :

— « خبريها بمقامي وقولي لها إني لن أغمد سيفي حتى أنقذها من محنتها . » فقالت :

— « وماذا يا سيّدي لو صحبتني إليها في زيّ النساء ومكّنتك من زيارتها . . . » فقال البرّاق :

— « لا أفعل ذلك أبداً فما كنت لأزورها في زيّ النساء ولكن في زيّ الأبطال أخوض إليها السيوف وأقتحم الصفوف ولسوف أظل هائماً على وجهي حتى أستطيع أن أنقذها بحدّ حسامي . . . » فقال صريم :

— « الرأي عندي يا برّاق أن تصحبني إلى الملك فأقدّمك إليه على ما أعرفه فيك من خصال الشرف والنجدة

والبسالة فتكتسب ثقته وتحظى عنده وتستخلص ابنة عملك . »

فقال البرّاق :

– « يا صريم . مهما بلغ الملوك من العزّة والجبروت فإني لا أتواضع لهم فهيهات أن أهدر دم أخي غرسان أو أطلّ وتْر سبي ليلى فوحقّ خالقي وربّي إن تواضعي لعجوز هرمة أقعد بين يديها وأقوم. وتأمرني بأمرها وتبسط عليّ لسانها أهونُ عليّ من أن أتواضع لهم . . . وإنك لتشير علي بمشورة من سقطت نفسه وذهبت مرءوته ووهي ذراعه وقصر باعه فلئن جنيت اليوم الخيبة لأجنينّ النصر غداً ما بقي في يدي سيف قاطع وقلب طامع وعشيرة صادقة . »

فسكت صريم مغلوباً على أمره فعاد البرّاق يقول :

– « ولست أرجو أن أزيدك بنزولي بدارك ثقلاً وحرجاً فإني منذ الساعة منفصل عنك شاكر لك وللرقشاء كريم الحفاوة فإن تفقّدتني يوماً أو تفقّدتني الرقشاء عرفتُ كيف أكون عند الرغبة فيّ والملتمس فوداعاً يا صاحبيّ . »

ونهض وانصرف تاركاً الرقشاء وزوجها في حيرة وحسرة .

وانقضت أيام كان البرّاق فيها يرود البقاع ويختلف بين الهضاب والبطاح ينتظر من الله أمراً يفرّج فيه غمته ويظفر بمراده . وكان كلما طغى عليه الحزن ذهب إلى قبر أخيه

غرسان يندبه ويبكيه .

وإنه ليسير يوماً بجواده في بعض التلال مفكراً مهموماً إذا به يسمع وقع سنابك خيل وصليل سلاح فأرهف السمع والبصر فانجلى له الغبار بعد قليل عن كوكبة من الفرسان مقبلة نحوْه تصعّد في التلّ الواقف عليه فقال في نفسه : إما أنهم يطلبونني وإما أنهم يرتقون التلّ ليهبطوا منه إلى منبسط الطريق . غير أن الكوكبة لم تكد تتجاوز السفح قليلاً وعلى رأسها برد بن طريح حتى اختلج صدره ورحّب بالقتال مهما كانت نية القوم القادمين وشكر الزمن على هذه النهزة المواتية يشفي فيها غليله من هذا الرجل الذي سام ليلى صنوف العذاب . غير أنه عاد فحدّث نفسه قائلاً : لو لم يتعرّض برد لليلى وهي في طريقها إلى أمير اليمن أما كانت اليوم زوجة الأمير تفصله عنها البوادي والقفار . ولكن لا . فحسب الرجل أنه كان عاتياً غليظاً مع ليلى ليستحق صارم القصاص وحسب القصيدة التي سمعها من الرقشاء عن لسان ليلى تستنجد به وتتمنّى أن يكون له عين فترى ما تعانيه من بلاء وعناء وتصف فيها ما لاقته من ألم الضرب وعضّ الأصفاد . حسب تلك القصيدة التي أخبرته الرقشاء أنها تتناقلها الأفواه وتسير بها الركبان حسبها سبباً يدفعه إلى إغماد سيفه في صدر برد بن طريح .

وكأنه ارتاح لهذا الرأي فجمع أطراف أرسان جواده بيده اليسرى واستلّ حسامه باليمنى وهزّه هزّات متوالية متحفزاً للوثوب والضرب به في أكباد من يتصدّى له دون وتره وثأره .

وأوشك الفرسان يتعدّون منتصف الطريق إليه فصاح فيهم صيحة شديدة اهتزّت لها جوانب الفضاء وقال :

ــ « قفوا أيها الناس فبيني وبين رئيسكم حساب يجب أن يسوّى فاتركونا وشأننا فيه وإلاّ تكفّل سيفي بكم وبه فأنا البرّاق بن روحان . . . »

ولم يدع برد بن طريح للفرسان فرصة الجواب فبادر وقال :

ــ « استعدّ للموت يا برّاق فهؤلاء الفرسان يطلبونك معي وإنك لأعجز من أن تنال منهم مأرباً . ولسوف يفري لحمك أحد عشر سيفاً كل واحد منهم كفيل بأن يمزقك شرّ تمزيق . »

وما كان من البرّاق بعد سماعه هذا التحدّي إلا أن انقضّ على الفرسان انقضاض الصاعقة المجنونة واخترق صفوفهم وهو يزمجر كالعاصف الهدّار ويلاعب سيفه بهم ذات اليمين وذات اليسار ويكرّ فيهم ويفرّ متنكباً عن برد ابن طريح حتى سقط ستة منهم عن سروج خيولهم مثخنين

بالجراح ولاذ أربعة بأذيال الفرار وبقي هو وبرد وجهاً لوجه يتصاولان ويتحاجزان .

وأدرك برد أن الدائرة ستدور عليه ففكرّ في الهرب ولكن تذكر كلام أخيه جبير يوم عنّفه على قسوته وظلمه لليلى وألقى إليه أن يدرك ثأره من البرّاق في نزال شريف. فثارت في نفسه عند هذه الذكرى بقية من الشمم العربي والإباء فقرّ قراره أن يعدل عن الفرار وأن ينازل البرّاق منازلة الخصوم الشرفاء فإما أن يموت وإما أن ينتصر على غريمه .

وانتشله من تفكيره صوت البرّاق يقول له :

ــ « إلينا الآن يا برد . . . فدافع عن نفسك ما تستطيع فإني قاتلك لا محالة . » فقال برد :

ــ « سيعرف الحيّ منا من قتل الآخر . . . » فقال البرّاق :

ــ « يعزّ عليّ أن ألوّث سيفي بدم نجس مثل دمك ولكن لا بدّ من عقاب خاطف النساء ومذلّ الحرائر . » فقال برد :

ــ « دعواك العريضة شنشنة أعرفها من ربيعة فالسيف هو الفيصل بيننا فإن قتلتك شفيت سخيمات صدري وإن قتلتني متّ كذلك مبتلّ الجوانح مشفيّ الثأر فاعلم أن قتلي

لن يدنيك من ليلى فسوف يكون بينك وبينها قفار من الشوك والسلاح لا قِبَل لك باجتيازها . إن ليلى ستُرسَل بعد أيام قلائل هديّة من ملك فارس إلى ملك الهياطلة . . »

وتبسّم برد ابتسامة نكراء بعد هذه القذيفة التي أطلقها في وجه البرّاق وطارت نفس البرّاق شعاعاً من هول ما سمع فكرّ كرّة عنيفةً على برد وشدّ عليه بالسيف وهو يقول :

ــ « خسئت أيها الثعلبان الماكر الغدّار . . . خذ هذه الضربة ثمن سبي ليلى . . . وهذه الضربة فدى غرسان . . . وهذه الضربة فدى القتلى من أبطالنا الشجعان . . . »

وخرّ برد بن طريح جثّة هامدة محطمة الرأس مهشمة الأوصال . . .

١٢

رجع صريم وزوجته الرقشاء إلى العاصمة فسارعت زوجته إلى ليلى تطالعها على أخبار البرّاق وبادر زوجها إلى قصر الملك يضطلع بمهام الدولة وفي نيته أن يتحرّى الأسباب التي من أجلها لا تزال ليلى في ديار الفرس حبيسةً أسيرة فقد كان حاول في كثير من الكياسة واللباقة أن يعرفها من الأمير بلاش فما استطاع إلى ذلك سبيلاً وحال تكتّم الأمير دون أن يكشف ذلك السرّ المصون . وكان رجاء صريم معقوداً في هذه المرة على الملك نفسه فقد يبوح له بما لم يبح به الأمير بلاش . وكان في نيته أيضاً أن يجتهد ما وسعه الجهد في استرحام الملك واستنداء قلبه ليفرج عن هذه الشقية المسكينة التي لعبت بمصيرها الأيام وأذاقتها الوبال والنكال .

ولقيه في القصر جبير الإيادي شقيق برد وكان يخصّه بالمحبة والإجلال فتحدّثا معاً في شأن ليلى والبرّاق وأفضى كلٌّ إلى صاحبه بما عنده من أحوالهما فعلم صريم أن قد سبق السيف العذل وأن كل أمل في إنقاذ ليلى قد اضمحلّ وتلاشى وأن الأمور جرت في غيبته بحيث تزداد ليلى معها

محنةً فوق محنة .

كان صريم يعرف أن ملك الهياطلة اشترط فيما اشترط ليرضى بالصلح بينه وبين الفرس أن يدفع له ملك الفرس جزية جسيمة في كل عام وأن يوفد إليه ابنته ليضمّها إلى نسائه وحظيّاته فما وسع ملك الفرس إلا الإذعان والقبول .

وعرف صريم من جبير أن الكاهن الأكبر قد أشار أمس على الملك أن يرسل ليلى إلى ملك الهياطلة على أنها ابنته فاغتبط الملك بهذا الرأي وأنهى به إلى الأمير بلاش وطلب إليه أن ينقله إلى ليلى ويوصيها بالكتمان وقرّ قراره أن يأخذ منذ الآن أهبته للحرب إذا ما انكشفت الحيلة .

ووقف صريم كذلك من جبير على أن أخاه برداً قد علم بالأمر فذهب ينقله إلى البرّاق تشفّياً وانتقاماً فهو يعرف أن البراق لا يستنيم للهزيمة وأنه لا بدّ أن يكون جائساً خلال القرى والدساكر يتحين الفرصة للغارة والقتال .

وتشاور صريم وجبير فما وسعهما إلا أن يرثيا لحال ليلى ويأسفا على حظها العاثر فقُوى الشرّ كلها متضافرة على محاربتها وإيذائها . وأدرك صريم أن لا سبيل إلى الرجوع عما عزم عليه الملك فكلمة الكاهن الأكبر مقدسة لديه ولا سيما أنه يتكلم بوحي الكواكب والنجوم وحتى لو شاء الكاهن الأكبر أن

يعدل عن رأيه لما استطاع فقد أخبره جبير أن الرجل مات فجاءةً في ذلك الصباح .

وافترق الرجلان ومضى كلٌ إلى شأنه . وانصرف ذهن صريم إلى زوجته الرقشاء الجالسة في تلك الساعة إلى ليلى وقدّر في نفسه أي ثورة من ثورات النفس تشهدها زوجته من لدن ليلى الفتاة البائسة الحريب .

ولم يخطئه الظن فقد ارتاعت الرقشاء لما دخلت على ليلى فوجدتها ثائرة هائجة هياج القفر أثارت رماله الزوابع فأمسكت عن الحديث حتى يسكن جأشها قليلاً وقالت في نفسها : إن أخبار البرّاق كفيلة بأن تخمد هذا الأوار المحتدم ولكن أيكون هناك بليّة جديدة أفقدتها الصواب. لا. فما بعد بليّتها أمر تثور له النفوس إلا أن يكون الأمير بلاش قد انتهى به الأمر إلى الطمع في جمالها .

وأعقب هياج ليلى هدوء أليم انقلب فيه الصياح إلى نحيب وبكاء فتشجعت الرقشاء وأقبلت عليها تواسيها وترطب خاطرها فقالت ليلى :

— « عذراً يا رقشاء فقد فقدت صوابي . أهلاً بك ومرحباً . »

فقالت الرقشاء :

— « مرحباً بك يا حبيبتي . نعمت صباحاً . » فقالت ليلى :

— « لقد كان الأمير بلاش هنا منذ قليل . »

فأيقنت الرقشاء أن حدسها وتخمينها قد أصابا كبد الحقيقة فقالت في وجوم ووجل :

— « وهل في زورته ما يثير الشجون . » فقالت ليلى باكية :

— « جاء ينهي إليّ أمر أبيه الملك وهو أن ينفذني إلى ملك الهياطلة لأكون في عداد نسائه وحظيّاته . ذلك هو شرط من شروط الصلح بينهما . » فقالت الرقشاء :

— « وما شأنك أنت وملك الهياطلة وأنّى له أن يعرف بوجودك . » فقالت ليلى :

— « اشترط على ملك فارس أن تكون ابنته تلك السبّية الحظيّة فأراد أن يوفدني بدلها ويصون عفاف ابنته كأنما العفاف وقف على بنات الملوك . » فقالت الرقشاء :

— « تُرى من أشار عليه بهذا الرأي القبيح » فقالت ليلى :

— « علمت منه أنه الكاهن الأكبر فأدركت اليوم معنى وعيده وتهديده كما كنت قد حدّثتك بذلك من قبل . » فقالت الرقشاء :

ـ « إنك كنت أكرم نفساً من هؤلاء الفرس جميعاً فطويت في صدرك سرّ مراودته إياك فما كان أجدر هذا السافل أن يحفظها لك يداً بيضاء ولكن لقد انتقم لك الصلاح والعفاف فالكاهن الأكبر مات فجاءةً في هذا الصباح . »

فقالت ليلى :

ـ « عرفت ذلك ولكن رأيه لم يمت معه ولا بدّ من إنفاذه . » فقالت الرقشاء :

ـ « وكيف تنطلي الحيلة على ملك الهياطلة . أليس لك لسان ناطق . » فقالت ليلى : :

ـ « لن أعدم لساني يا رقشاء ولكن هل يصدّقني . وهبيه صدّقني فمن ينجيني من بطشه . » فقالت الرقشاء :

ـ « حبيبك البرّاق . »

فتبسمت ليلى ابتسامة حلوة عند سماعها اسم حبيبها البرّاق غير أن لون اليأس ما عتّم أن غشّى على حلاوتها فقالت :

ـ « وأين البرّاق مني في تلك الديار النائية . أحسبته ملك العرب والفرس يجيّش الجيوش ويقودها إلى بلاد الهياطلة فاتحاً غازياً . وافرضي أنه فعل فمن يضمن لي السلامة حتى ألقاه . » فقالت الرقشاء :

ـ « ربّك الذي تؤمنين به . » فقالت ليلى :

ـــ « هو ملاذي ومعتمدي ولولاه لقتلت نفسي أو لدنّستها بالإثم والنكر . » فقالت الرقشاء :

ـــ « ومن ملاذك ومعتمدك بعد ربك . » فقالت ليلى :

ـــ « البرّاق يا رقشاء . . . ويحي لقد اتّهمته في حبه ووفائه وبسالته . . . أنكرت عليه سكوته وسكوت عشيرتي في حين كان على رأسها يصارع الفيلة والدواهي السود حتّى مني بالهزيمة النكراء فلا بدّ أنه عاد إلى الدّيار يائساً مخفقاً ولا لوم عليه ولا تثريب . . . » فقالت الرقشاء :

ـــ « كلاّ لم يعد . . . إنه على بعد فراسخ منك . »

فوثبت ليلى واقفة وصدرها يعلو وينخفض شوقاً وأملاً ثم ارتمت على الرقشاء تقبّلها وتقول لها :

ـــ « حدّثيني عنه يا رقشاء . كيف هو . من قال لك إنه البرّاق . » فقالت الرقشاء :

ـــ « فيه وقار الكهل وحلم الشيخ على صباه ونضارة شبابه . ربع القامة واسع الصدر عريض المنكبين أدعج العينين جعد الشعر قد نزل عارضاه على مستّهل لحيته . أما شجاعته فدونها شجاعة الأسود وقد شهدته بعيني يغير على خمسة فرسان مدجّجين بالسلاح ومنهم زوجي فيقهرهم جميعاً ويكبّهم عن متون الخيل . »

فخفق فؤاد ليلى فرحاً وطرباً فقالت :

ـ « زيديني يا رقشاء زيديني . . »

فاستفاضت الرقشاء تحدّثها عنه وتقصّ عليها من أخباره وتصف لها تحيّنه الفرص لإنقاذها وأخبرتها أنها تعرف أين تلقاه إذا ما أجمعتا على أمر من الأمور فيه نجاتها وخلاصها. فاستمعت ليلى لها بكل جانحة من جوانحها غير أنها رجعت إلى رشدها وطالعتها الحقيقة بوجهها الكالح فاسودّت الدنيا في عينيها فقربُ البرّاق منها لن يحول دون مصيرها المشؤوم وهي بعد أيام قلائل ستخبّ بها الجياد إلى ملك الهياطلة .

وأمعنت الصديقتان في الروّية والتفكير لعلهما توفّقان إلى رأي صائب خمير تكون فيه منجاة ليلى فطال تفكيرهما دون جدوى حتى لمع في خاطر ليلى بريق من الأمل فصاحت في صديقتها :

ـ « اسمعي يا رقشاء . » فقالت الرقشاء :

ـ « سمعاً يا حبيبتي . » فقالت ليلى :

ـ « لقد خطر ببالي خاطر أرجو أن ينتهي به أسري وعذابي فإن أخفق فعلى ليلى العفاء . » فقالت الرقشاء :

ـ « وما هو . » فقالت ليلى :

ـ « علمت من الأمير بلاش أنه خارج بعد غد إلى القنص والصيد في جماعة من رجاله وأصحابه فسأبلغه أني رهن

إشارة الملك ممتثلة لأمره راضية أن أحلّ محلّ ابنته في الرحيل إلى ملك الهياطلة وسأتوسل إليه أن يصحبني إلى الصيد حتّى أودّع البادية وأتنفّس فيها وأحمل منها أنفس التذكار فإذا أجاب ملتمسي رجوتك أن تبلغي البرّاق بذلك فيجمع جموعه ويترصّد للموكب وينتزعني منه ويردفني على جواده ويطير بي هو ورجاله ونعود إلى الجزيرة آمنين سالمين . » فصاحت الرقشاء :

— « نعمّا الرأي يا ليلى ونعمّا هذا الفكر الثاقب يا زين نساء العرب وإني لباعثة الساعة برسولي إلى البرّاق سواء أسمح الأمير باصطحابك إلى الصيد أم لم يسمح حتّى يتأهب للأمر العظيم ولعله يرى فيه رأياً . »

ثمّ نهضت فقبّلت ليلى مودّعة وهي تقول :

— « إذا حصلتِ في قبيلتك فاذكري أختك الرقشاء واسألي ربك أن يهدي قبيلتيْ إياد وأنمار فتكفّا عن موالاة الفرس وتعودا إلى أحضان قبائل العرب على ما نتمتّع به هنا من رزق واسع وثراء عريض . » فقالت ليلى :

— « سأذكرك يا أختاه بالخير والشكر والثناء سواء عدت إلى ربيعة أم طوقتني قيود ملك الهياطلة . . . »

وحان يوم الصيد فخرج الأمير بلاش في رجاله قبل

انبلاج الفجر ووراءه غلمانه يحملون عُدَد الصيد من أقواس ونشّاب ويسوقون النجائب مثقلة بأسفاط الزاد من طعام وشراب. وكان الأمير وحجّابه يمتطون فواره الخيل مرصّعة سروجها باليواقيت والجواهر ويتقدّمها عدد كبير من البزاة والصقور وكان قد ضُرب لمن معهم من النساء تخوت من الديباج والحرير فوق ظهور النجائب فجلسن فيها يرقبن الصيد ويسعدن به. وكانت ليلى في النسوة اللواتي صحبهن الأمير فقد أجابها إلى رغبتها بعد إذ أكبر فيها طاعتها وإذعانها لما طُلب منها. وكانت جالسةً في تختها شاحبة اللون بادية الاضطراب تسرّح النظر في أطراف البادية وَجِلةً خائفة لعلها تشعر بدبيب ما تتوقع فلا يطرق مسمعها غير اصطخاب الطيور وحمحمة الخيول ولا تحسّ بغير دقات قلبها تتوالى عنيفة مسرعة.

واستسلمت إلى الهواجس تسائل نفسها ماذا يكون مصيرها لو أخفق البرّاق في حملته. ولكن هل عرف البرّاق بخروج الأمير إلى الصيد وخروجها معه. وهل تمكّن رسول الرقشاء إليه من أن يلقاه ويبلغه الخبر. وكيف استطاع أن يجمع الجموع في حين سار في أهل فارس كلهم نبأ إياب العرب إلى ديارهم مكتفين بالغنائم التي سلبوها وظفروا بها.

وعزّ عليها أن تصدّق أن أباها وأخوتها وأن أخوالها وأخوة البرّاق يهجرونها ويعودون إلى مضارب خيامهم ويتركونها في أيد أعجمية لا حامي لها بينهم ولا نصير .

وكلما مال بها الفكر إلى رحيل عشيرتها عن بلاد فارس ملأ قلبها اليأس من نجاح البرّاق في الخطة التي أوعزت بها إليه ولامت نفسها على تعريض البرّاق للخطر في غير جدوى ولا طائل .

ولم تنفكّ تسائل نفسها وتضرب في بوادي الفكر حتى أحسّت بوثبات الخيول وصراخ الفرسان فمالت إلى نافذة التخت فرأت الأمير وأصحابه قد عدا كلّ منهم بفرسه في ناحية يضيّقون الخناق على سرْب من الوعول برز لهم من وراء بعض التلال . ثم لحق بهم نفر من الغلمان بالكنائن والجعاب وبقي النفر الآخر في حراسة النسوة وخدمتهن .

ظنت ليلى أن الأصوات أصوات أهلها المغيرين فخاب ظنها لما رأت أن الغارة غارة الأمير وصحابه على سرْب من الوعول وما إن تزفر زفرة الحسرة والخيبة حتى تسمع ركض جواد يدقّ الأرض دقات متطايرة كأنه لا يكاد يلمس وجه الأرض وتحسّ أن الصوت منحدر إليها من خلف تختها فتمدّ رأسها من نافذة التخت فيقع نظرها على فارس هابط

إليها هبوط الصاعقة فتتبينّه فإذا هو البرّاق فيخفق صدرها فرحاً وخوفاً ويزداد خفقـــانه عندما يصل إليها ويناديها باسمها فتردّ على النداء ويقف جواده قرب تختها وقفة قاطعة فتفقد شعورها بالخوف وتقفز إليه فتستوي قاعدة على كفل جواده وتتشبّث يداها بخاصرتيه وساقاها ببطن الجواد ويستدير منطلقاً بها انطلاق السهم على مرأى من النسوة المدهوشات وعلى مشهد من الغلمان الذين أذهلتهم المفاجأة وسرعتها الفائقة فنظروا إليه مشدوهين فاغري الأفواه .

وحينما استفاقوا من دهشتهم حاروا في أمرهم وتساءلوا أيتعقبون ذلك السهم المارق والفرس المجنّح أم يلحقون بالأمير ويخبرونه بما حدث فآثروا اللحاق بالأمير فذلك أيسر أمراً وأسهل منالاً .

ومضت الساعات الطوال قبل أن يقف الأمير على جلية الخبر فألغى رحلة الصيد وأمر الفرسان أن يتعقبوا ذلك الجريء الجسور وعاد هو وبقية الركب إلى العاصمة .

وتلقّى الملك الخبر بسخط لا مزيد عليه فعنّف ابنه تعنيفاً شديداً على إهماله وتهاونه ولا سيما أن الكاهن الأكبر كان قد أسرّ إليه بحديث النجوم في شأن هذه الفتاة ونجاة المملكة من الذلة والعار على يديها .

وذاع الخبر في المدينة وشاع واستقبله الناس في عاطفة متضاربة فقد كانوا في الأيام الأخيرة قد وقفوا على قصة ليلى وعرفوا ما قدّر لها من خاتمة المطاف فانقسموا إلى فريقين بين راض وساخط .

ووقع الخبر على الرقشاء وزوجة برد وقينتها وقوع الغيث على الأرض العطشى فكنّ أسعد الناس به وأكثر الراضين طرباً وحبوراً وشاركهنّ في تلك الغبطة صريم وجبير فإنهما على وفائهما للدولة الفارسية كان صوت الدم العربي يهيب بهما إلى استنكار الظلم المحيق بليلى والغاية التي أعدّت لها .

ولم يكتف الملك بالفرسان الذين أطلقهم الأمير وراء البرّاق وليلى بل أصدر الأمر إلى وزرائه وقوّاد جنده بتعقب الهاربين والقبض عليهما والرجوع بهما إلى عاصمة المملكة سالمين مخفورين ليتمّ وحي النجوم في ليلى ويُنزل أدهى صنوف العقاب بخاطفها الجريء .

ولكن البرّاق وليلى كانا أبعد من أن يدركهما الجادّون في أثرهما فقد كانت مهرة البرّاق لا تجري وتركض على الأرض بل كانت تطير طيراناً أسرع من البرق بل أسرع من الظن . وتمرّ بالسهول فتختطفها خطفاً وتعرّج على الهضاب فتتجاوزها وثباً ويراها الراؤون فلا يكادون يلمحونها فيرجعون إلى

أعينهم وأسماعهم متسائلين مدهوشين .

وكان همّ البرّاق أن يجتاز أرض فارس قبل أن ينتشر الخبر ويسدّ عليه الفرس المسالك والشعاب بالجند الغفير والعسكر المجر فلا يستطيع لقاءهم وحيداً بلا سند ولا ظهير بعد إذ هجره أهله وأهل ليلى وعادوا إلى ديارهم فقد تفقّدهم في اليومين الأخيرين حيث عيّن لهم المواقع والمخابئ ليستنصرهم ويجنّدهم للغارة فرأى مواطنهم قاعاً صفصفاً فعجب من رحيلهم دونه ثم قال لقد غبت عنهم طويلاً فظنوني قد متّ أو افترسني بعض الوحوش .

وبقي البرّاق وليلى طائراً بهما الجواد لا يتكلمان ولا يستريحان حتى بلغا مدينة «الكرخاء» وهي الفاصل بين حدود الفرس وديارات العرب فعبَراها لا يلويان على أحد ولا يحفلان بالناس يخوض فيهم الجواد وتفرّقهم ضربات حوافره .

وما زال البرّاق وليلى على مثل هذه الحال من مسابقة الرياح حتى اجتازا بلاد فارس وأوغلا في مرابع العرب . وكانت الشمس لا تزال ضاربة في كبد السماء فوقف جواده عند رابية حالية بالعشب والشجر وقال :

— « لنسترح قليلاً فقد أمنّا جانب الخطر وما إخالك يا ليلى إلا ناصبة متعبة . »

فقفزت ليلى إلى الأرض وترجّل البرّاق وفكّ عن الجواد أربطة السرج والأعنّة وأطلقه يرعى الكلأ .

وقبل أن تنطق ليلى بحرف معبرةً عما يزدخر في صدرها من متباين العواطف وقبل أن يهمّ البرّاق بالخروج عن الصمت إلى الإفضاء بما يختلج في جوانحه من شعور وما يتردّد تحت لسانه من كلم بعد تلك الأحداث الجسام بُهتا كلاهما حين لحا في الأفق سحائب من الغبار انجلت بعد قليل عن جماعات من الفرسان لا يدرك الطرف آخرها مقبلة نحوهما تطوي البطاح والتلال طيًّا سريعاً فخامرهما شيء من القلق والخوف وأسفا على أن ينتهي فوزهما المبين بوقوعهما ثانيةً في قبضة الخصوم والأعداء .

وكان عامل القلق والخوف يصارعه في نفسيهما عامل الأمل والطمأنينة فتلك الجموع التي تغذّ السير إليهما رأياها آتية من ناحية جزيرة العرب لا من ناحية بلاد فارس وفي ذلك مبعث على سكينة القلب واطمئنانه ولكن من تكون تلك الجموع . أتُراها قبائل إياد وأنمار الموالية للفرس أم قبائل ربيعة ومن دار في فلكها .

كان ذلك الجيش الزاحف مجموع قبائل العرب ممن والى ربيعة أو عاداها . فمن فرسان ربيعة ومضر إلى بكر وتغلب إلى

طي وقضاعة حتى إلى إياد وأنمار وما تفرّع على هؤلاء جميعاً من بطون وأفخاذ فقد كانوا زاحفين إلى بلاد فارس ليمحوا عن جبين العرب أجمع سبّة العار في سبي ليلى وتعذيبها .

ولقد اجتمعت تلك القبائل والعشائر على استصراخ النساء وصياحهن فإن لكيزاً وأبناءه وكليباً وأخوته وأخوة البرّاق لما استبطأوا عودته إليهم وتفقّدوه في النواحي التي اعتصموا بها فلم يعثروا له على أثر قرّ رأيهم على أن يعودوا بمن معهم من الفرسان إلى ديارهم لعل البرّاق يكون قد سبقهم إليها أو لعلهم يفلحون في بثّ الدعوة للحرب وحمل القبائل طرًّا على القتال .

فلما قدموا بغنائمهم على أهلهم وليس معهم البرّاق ولولت النساء وأعولت وما فرحت واحدة منهن بسلامة ولدها أو أخيها أو زوجها مع فوات البرّاق وضربن كلهن الأستار دون الرجال وعفّرن الخدود وشققن الجيوب وقطعن الشعور وأقبلن على العائدين نادبات لائمات . وكانت أمّ الأغرّ أكثر النساء تعييراً لأخوتها ومن معهم من الرجال على تركهم البرّاق ورجوعهم دون ليلى .

وأجمعت النساء على استصراخ القبائل وإيغار الصدور فانبثثن فيها يصرخن : واذلاّه . واحرَباه . ماتت نخوة العرب . يا لافتضاح الخفِرات . إلى غير ذلك من العبارات التي تضرم

الحماسة في القلوب فتثير الشجاع وتقوّي عزم الجبان .
واتفق أن دارت قصيدة ليلى على ألسنة الركبان وهي القصيدة التي تقول فيها :

ليت للبرّاق عينـــاً فترى ما أقاسي من بلاء وَعنا

. . . .

قيـــدوني غللوني ضربوا موضع العفة مني بالعصا

فوصلت إلى الجزيرة وسرت في البيوت مسرى النار في الهشيم فكانت ألـهُوب الصدور ومشحذ العزائم فهبّ الرجال من كل حدب وصوب وتنادوا لإدراك الثأر واستنجدوا بالقبائل والعشائر قاصيها ودانيها حتى بأمير اليمن عمرو بن ذي صهبان فإذا هو مشغول بعرسه وعروسه التي زفّت إليه فأعرضوا عن نجدته وساروا رجالاً ونساءً تحت راية كليب إلى أرض فارس وهم ينشدون :

«نقود إلى البرّاق خيلاً شوازبا وأسداً أعدّت للقراع قواضبا
أجبنا إلى البرّاق خير إجابة نقود إليه كالقداح سلاهبا
عليها من القوم الكرام كتائبٌ هنالك تقفو في المسير كتائبا»

ولما اقتربوا من الرّبوة التي وقف عليها البرّاق وليلى وبلغت الأناشيد مسمعيهما يتردّد فيها اسم البرّاق تبسّما كلاهما ابتسامةً حوت كل معاني البهجة والفوز وكانا حتى تلك الدقيقة لم

يريما من موضعهما ولا فتحا شفتيهما بحديث من الأحاديث على وفرة ما في نفسيهما من شؤون وشجون وإنما كانا شاخصين ببصريهما إلى الأفق مطلعين طِلْع ذلك السواد المقبل مستوضحين أمره لتقرّ في صدريهما البلابل .

وما هو أن يلمحا راية كليب في الطليعة حتى يصيحا بصوت واحد :

ـــ « هذا كليب وهؤلاء أهلنا . »

ويغمرهما الفرح الفياض ويقبل كلّ منهما على الآخر يريد أن يضمّ حبيبه إلى صدره ويطفئ ببرْد العناق ونعيم القُبَل لواعج الشوق والحب فتقف ليلى جافلة وتمنع نفسها ما تشتهي ويشتهي الحبيب فقد ذكرت أنها لا تزال عروس أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان اختطفها برد وهي في طريقها إليه فليس من حرمة العفاف أن تمنح خدّها رجلاً غيره ولو كان ذلك الرجل ابن عمها وحبيبها ومنقذها من السبي والعار .

ويقضي جفولها على اندفاع البرّاق فيقف كأنه سُمّر في مكانه وينعقد لسانه وتنحبس الكلمات في فمه وتتحطم عند مجتمع شفتيه فلا يقوى أن يقول لها إنها عروسه وإن أباها قد زوّجه بها وهي غائبة وأشهد على نفسه في العهد الشهود .

وتصل طلائع الفرسان إليهما فيفاجؤون بأجمل مفاجأة وأعذبها ويصيحون في فرح وغبطة ودهشة .

— « ليلى والبرّاق . ليلى والبرّاق . »

ويطير الصياح من فم إلى فم حتى يمرّ بالأفواه كلها فتسري في الجموع رنات البهجة والفرح تتخللها تغاريد النساء ويثب لكيز إلى الأرض على كهولته ويندفع إلى ليلى يتبعه أبناؤه فيضمّها إلى صدره ويوسعها تقبيلاً ويزاحمه عليها أخوتها الثلاثة فيغمرونها بالقبلات .

ويهجم أبو البرّاق على ابنه والأخوة على أخيهم فيعانقونه ويزاحمهم عليه كليب وأخوته فيشفون أنفسهم من الشوق إليه والوجد عليه ثم ينقلبون إلى ابنة أختهم ليلى وينقلب كذلك أبو البرّاق وأخوته إلى ليلى يطالعونها جميعاً بالتحية والتهنئة . ويقبل على البرّاق وليلى صفوف الطليعة من الفرسان فيحيونهما ويهنئونهما أصدق التهنئات .

وينبعث في تلك الأثناء صوت امرأة كانت قد نفرت من المؤخرة إلى الطليعة وهي تصيح :

— « افسحوا لي في الطريق . افسحوا لي في الطريق . ليلى . ليلى . »

كان الصوت صوت أمّ الأغرّ فإنها كانت مع بقية

النسوة في مؤخّرة الجيش فلم تكد أذناها تسمعان بليلى وعيناها تكتحلان بشبح ليلى الواقفة على الرابية حتى حثّت مطيّتها إليها مخترقةً صفوف الخيل زاحمةً مناكب الفرسان تكاد ترقص طرباً على أجنحة الهواء. فتثب من الراحلة وتجري إلى ليلى وتجري ليلى إليها فتتعانقان وتتبادلان القبل في عبرات منهمرة وشهقات طوال .

وتحلّ رؤية الأبطال عقدة لسان البرّاق فيخاطب أهله وأقاربه وأبناء عشيرته ورؤساء الأنصار بعد إذ عرف أنهم اتحدوا على شدّ أزره واستنقاذ ليلى ويشكر لهم خالص محبتهم وكريم نجدتهم وجميل إجماعهم على ركوب المخاطر والأهوال في سبيله وفي سبيل انتشال ليلى من براثن الهون والعار .

ويعقد الزعماء مجلساً للشورى يتصدّر فيه البرّاق فتجتمع كلمتهم على مواصلة الزحف إلى بلاد فارس واجتياح قراها ودساكرها ومدنها ونهب كنوزها وسبي نسائها وإشاعة الدمار فيها والخراب . وكان أكثر المتشاورين حماسةً إلى الغزو إياد وأنمار تكفيراً عما فرط منهم من موالاة الأعاجم ومحالفتهم ومحواً للعار الذي جلبه عليهم صنيع برد بن طريح الإيادي. فما كفاهم أن يعلموا من البرّاق أن برداً تكفّل بجزائه سيف البرّاق ولا شفع لديهم دون الكفّارة ما قام به صريم وجبير

وأهلهما من مسعى حميد ومروءة ونجدة .

وارفضّ المجلس على هذا الرأي فأناخوا الرواحل وضربوا الخيام وأطلقوا الجياد في المراعي التماساً للاستجمام واستعداداً للغارة الكبرى يشنّونها بعد يوم أو يومين .

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب وأرسلت إلى الكون دمعتها الصفراء مودّعة منتحبة وكان القوم يشهدون مصرعها ويرون نعشها تحمله أكتاف السحاب إلى هوّة العدم فإذا هم يتحوّلون بأبصارهم إلى جهة أرض فارس على صوت قافلة قادمة منها إليهم فتبينّوها بعد قليل فعرفوا فيها صريماً وأهله تحيط بهم غلمانهم وقيناتهم العربيات فتردّد القوم في تحيتهم لما كانوا يعرفونه في الرجل من توفّر على خدمة الفرس ولكن البرّاق وليلى قطعا عليهم أسباب التردّد عندما خفّا إلى تحية القافلة والترحيب بها وأعلنا ما يحفظانه لصريم وزوجته من يد كريمة وانهالت ليلى على الرقشاء تقبّلها وتغمرها بالشكر والثناء .

وكان صريم قد أنف من البقاء في فارس موالياً لملكها وأهلها فعزم على النزوح بأهله إلى دياره وسلك إليها طريقاً قصيرة يعرفها فوصل إلى ذلك الموضع في ساعات . وأخبر البرّاق أن الفرسان الذين تعقّبوه لما يئسوا من إدراكه في بلادهم عادوا

من حيث أتوا . وأخبره أيضاً أن جبيراً سيظعن بأهله وزوجة شقيقه برد بعد أيام . فاستضاف البرّاق صريماً وزوجته فقبلا أن يقضيا ليلتهما بين عشائر العرب على أن تستأنف قافلتهما السير إلى ديار إياد في صباح غد. واعتذر صريم عن المشاركة في الغزو فما كان له أن يحارب قوماً وطّؤوا له أكناف الرزق والجاه وأحاطوه بالرعاية والإكرام فحسبه. فراقهم والرحيل عنهم . فنزل البرّاق ونزلت معه العشائر عند رغبته ورأيه .

واجتمع كل رجل إلى أهله وأصحابه فأضرمت النيران ونصبت الأثافي ورفعت عليها القدور إعداداً لطعام العشاء والتقى في خيمة لكيز .وبنيه أخوه روحان وأبناؤه وفي مقدّمتهم البرّاق وكليب وأخوته وأمّ الأغرّ التي ما فتئت تروح وتجيء في غير حاجة ولا سبب فرحةً طروباً وشهد السامر أيضاً صريم وزوجته الرقشاء .

ودارت بينهم أفانين الكلام وشجون الحديث وكانت ليلى تصغي إلى الأحـــاديث ولا تصغي فقد كان ذهنها مشغولاً بمصيرها فما ذكر لها أحد أن أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان قد استبدل بها عروساً أخرى . وبينا هي مُطرقة مفكرة سمعت أباها يناديها فقالت :

— « لبّيك يا أبت . » فقال :

ـــ « عندما كنت في أرض فارس أقلنمت على أمر لم أستشرك فيه . » فقالت ليلى :

ـــ « وأنّى لك أن تستشيرني وقد كنت بعيدة منك . وفي أي أمر يا أبي . » فقال لكيز :

ـــ « في أمر زواجك . »

فأشرق وجه ليلى ثم اربدّ فقد تنازع خاطرها البرّاق وأمير اليمن أما البرّاق فقد كان مشوقاً منذ التقى بلكيز إلى مثل هذا الحديث فخفق قلبه طرباً فقالت ليلى :

ـــ « وأي جديد فيه . » فقال لكيز :

ـــ « ستعرفين . . . »

ونهض لكيز إلى أخيه روحان وقال :

ـــ « هات يدك . » فقال روحان :

ـــ « هذه يدي . » فقال لكيز :

ـــ « لقد زوّجت ابنتي ليلى بابنك البرّاق . » فقال روحان .

ـــ « وأنا زوّجت ابني البرّاق بابنتك ليلى . » فقال لكيز :

ـــ « وهؤلاء جميعاً شهودنا . » فقال روحان :

ـــ « ونعم الشهود . »

وانطلقت أم "الأغرّ والرقشاء تزغردان وترقصان وتتواليان على ليلى بالتّهنئات والقبلات . أما ليلى فكانت في عالم آخر من الأحلام الجميلة ولا سيما بعد إذ عرفت أن أمير اليمن قد توارى من طريقها .

وانتشر الخبر في مضارب القوم فهزّ القلوب والأسماع وجلا لهم ليلة مرقرقة بالأفراح أكلوا فيها وشربوا وغنّوا ورقصوا على رنّات المزاهر ونقر الدفوف .

وعندما ينصرف البرّاق وليلى في الهزيع الأخير من الليل إلى خبائهما رازحين تحت أثقال ذلك اليوم الحافل بالحوادث الجسام مغمورين بفيض من الفرح يكاد يتفجرّ من صدريهما يشعران بحاجتهما إلى أن يتنفّسا ملء رئتيهما من الهواء الطلق ونسيم الليل النديّ. فيعرّجان على روضة فيحاء يسيران فيها على مهل عابثين بما يعترضهما فيها من أعواد النبات وغصون الشجر طربين بحفيف الأوراق ووسوسة الزهر مالئين العين من ضياء القمر مدّ طيلسانه الفضّي على السهول والأكم وعمّم به ذوائب الأشجار .

ويقطع البرّاق حبل الصمت بينهما ويقول :

— « ما أسعدني بك يا ليلى وما أجمل الحياة بقربك وفي جوارك وعساي أعود سالماً من غزوة فارس فأوفّر لك ما أنت

أهل له من السعادة والهناءة . » فقالت ليلى :

— « ستعود سالماً معافى وترجع مكللاً بغار النصر والظفر فلو كان الحب جنّة تتقى بها المهالك فلك من حبي مثل تلك الجنة تصونك وترعاك أبد العمر . » فقال البرّاق :

— « أنت العمر يا ليلى وأنت ربيعه الزاهي وأنت من حياتي الرّوْح والرّيحان ومن فؤادي نبضه الخافق وإني لأقسم بهذا القمر الذي يرقبنا ويسمع حديثنا وسرّ نجوانا لأقدّسنّ حبّك ولأجعلنك المخلوقة السعيدة التي تغار منها السعادة نفسها . »

فاغرورقت عينا ليلى بدموع الفرح وقالت :

— « وأنت الأمل والفخر وأنت الحياة وبهجتها فوحقّ هذا النسيم الذي أستنشقه لأصوننّ حبك وأكوننّ الأمة التي تغار على رضاك وإسعادك فما مرّ بي يوم منذ عرفت هواك إلا وأنت فيه شغل الفؤاد وحلم الخاطر . » فقال البرّاق :

— « هيّا يا ليلى نوثق أسباب الحب فدونك ردائي فشقّيه ومزّقيه ومكنيني من شملتك وقميصك أفريهما مزّقاً لنضمن بقاء الحب في قلبينا حتى آخر نسمة من نسمات الحياة . » فقالت ليلى :

— « أما تعلّمنا يا برّاق أن نضرب صفحاً عن مثل هذه

العادات والوساوس التي تخلّق بها الناس .» فقال البرّاق :

— « إن أليف الهوى يا ليلى تغريه الوساوس وتلعب بلبه الأوهام فما ضرّنا لو رعيناها . »

واحبّت ليلى أن تجيبه إلى مبتغاه فعمدت إلى صداره فقطعته وإلى رداثه فمزّقته وعمد هو إلى قميصها فشقّه وإلى كتفيها فنزع عنهما غلائل الثياب وقطّعها إرْباً فبدت ليلى شبه عارية في ذراعيها العبلتين وصدرها الوضّاح كأنها تجرّدت لتستحمّ بأشعة القمر. فزاغ نظر البرّاق لدى رايته ذلك التمثال من المرمر الحيّ فصاح مأخوذاً :

— « آه يا زوجتي الحبيبة . » فصاحت هي فيه :

— « آه يا زوجي الحبيب . »

فضمها البرّاق إلى صدره وطوّقت ليلى عنقه بذراعيها وتوارى القمر في تلك اللحظة وراء ستار من الغيوم فتبادلا في غيبة القمر قبلة طويلة أودعاها كل ما يختلج في قلبيهما من لواعج الحب ونوازع الحنين . . .

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـة والثقافـة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	
٨	نبوءة المنجم	
٩	روبن هود	

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حـ